حبيب حياة

إطلالة في قلب أنثى!

بقـــلم

منى مصطفى

(الخنساء العمرية)

إهـــداء

إلىٰ محبي الحياة

الراغبين في ترك أثر طيب

منبتـــــــه القلـــــوب

وزهـــوره الأطـفال

وثمـــاره الرجـــال

منىٰ مصطفىٰ

المقـــدمة

المرأة في زمننا.. زمن المدنية والعولمة تعددت أدوارُها وزادت مهامُها حتىٰ كشف لها الواقع من كوامن نفسها الخارقة ما كانت تجهلُ، وخلق فيها طاقاتٍ فاعلة ربما لم تتخيلْها يوما، فتحولتْ من قطة أليفة ناعمة الملمس وثيرة الفراش إلىٰ قطة برية، تتحمل عبء مجتمع بأكمله في شتىٰ مجالات الحياة، ربما كان هذا التحول نتاج تقصير الرجل أو لأن كليهما يسعي إلىٰ الكمال في كل جوانب الحياة ولا أظنه يتحقق!

ولأن حكمة الله في خلق المرأة الرقة والرحمة فيعتريها شوقٌ لسيرتها الأولىٰ، أن تقرّ في بيتها ويطوّقها ذراع زوجها وولدها ومن قبل حضن أبيها، فتراها تتبرم من هذا الواقع الصلب الذي قُضي عليها فيه بعدم التراجع للوراء.

وبين طبيعة خلق وواقع صلب لا يلين نراها تحولت لقطة برية، تعطي وتحمي، تتكسب وتقاوم، ثم تحب وتحتضن وترق...، ولكنها دوما تحتاج دفء الحياة لا صقيعها فتضعف أحيانا أو تنهزم!

تلك هي من احتفظت ببقية من فطرة سليمة.

أما من فقدت فطرتها فقد تحولت لمسخٍ يشبه الأنثىٰ في حاجاته ويشبه الذكر في سلوكه..

وهذا النوع الأخير لم أتعرض له في هذا الكتاب..

غالب الموضوعات تتخذ سياق السرد القصصي، ثم أتبعتها بسلسلة تربوية بعنوان (**ملح الحياة**) تعين المرأة في تربية طفلها منذ ميلاده وحتىٰ دراسته المناسبة وانتقاء شريك للحياة!

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حبيب حياة

في بيئةٍ ريفيةٍ نشأَتْ (**حياة**)، وكل ذنبِها أنها أنثىٰ، فهذه البيئة لا يتعلَّم فيها إلا الذكورُ، أما الإناث -لدىٰ أسرتِها الواعية!- فحَسْبُهن المرحلة الابتدائية أو بعض سِنِيها، ثم تتدرَّب علىٰ أعمال البيت وتتزوَّج، ونتيجةً لانشغال أبيها بأرضه وتجارته، كان أبوها الرُّوحي هو أخاها الأكبر، الذي صار مدرسًا وشاعرًا، وهو في الأصل وسيمٌ حليم، فخلب لبَّها علمُه ووجاهتُه، وكانت شبيهته، وتمنَّت أن تكون مثله، بكَتْ له كثيرًا وتوسَّلت إليه أن يُعينَها علىٰ والدَيْها لتكمل تعليمَها، لكنه لم يجد لذلك سبيلًا، ثم انشغل بنفسه، وظل الحلم يراودُها، بَيْدَ أنه غدا مِن أحلام اليقظة التي تنعش الخيالَ قليلًا ثم تتلاشىٰ.

شاء الله أن تتزوَّج في أسرة لا يهتم أفرادها بالتعليم، ومَن يتعلم منهم فإنما تعلَّم مِن عفو خاطره فقط، وينقطع بمجرد إتقان الكتابة والقراءة، عاشَتْ بقلبينِ: قلب يعاف الواقع، وقلب تداهمه أحلامُ حب التعلم، حب تكادُ لا تُصدِّق بريقَه الذي ينفذ إليك من بين أحرفِها، ويُذهِلك أن يحتفظَ به قلبها

كلَّ هذه السنين، ويروي عنه بشوق وحماس، وكأنه حلم الأمس القريب الذي ما زال قابلًا للتنفيذ؛ إذ إنها أوشكت علىٰ الستِّين من عمرها!

تحاورتُ معها؛ لأفهم سرَّ هذا الحب!

- وفيمَ حبُّك للتعليم يا (حياة)؟ وأنت في بيئةٍ لا تحتاجه غالبًا؛ فأنت ربَّة بيت، وأم ممتازة ونشيطة، رحوم أُلْهِمت حكمةً وعمقًا في التفكير، وهذا فوق ما ترجوه أيُّ امرأة هنا؟!

قالت: كانَتْ صديقتي المقربة ابنةَ الشيخ الذي يحفظنا القرآن بالمدرسة، وكنتُ أحبها حبًّا جارفًا لسحر صوتها، وجمال القرآن الذي سكن قلبي حبُّه، ولكنني أفتح المصحف فأتعثَّر، وإن اجتهدت في القراءة أخفقتُ في التجويد، كنتُ أتمنىٰ أن أكون مثلها!

وبقي فتيل الأمل في قلبي، آمُلُ أن أصيب فراغًا وأكمل تعليمي، كنت كلما نظَّفت البيت ووجدت كتابًا مهملًا أو ممزقًا أو جريدة، احتفظتُ بهم لأقرأهم في فراغي، ولكن لا يأتي الفراغ أبدًا، بل يأتي الشتاء ويأخذ (حَماي) كلَّ أوراقي لتُسهِّل عليه إشعالَ النار التي تدفِّئهم في الشتاء!

أحزن قليلًا.. ثم أبدأ في تجميع غيرها، ويكثر الورق فيعود الشتاء.

ورغم أولادي السبعة، ومسؤولياتي، وقسوة الحياة في الريف في بيت كبيرٍ أنا تُرْس الآلة فيه، وثقتي أنني لن أملك وقتًا، فإن هناك دافعًا ظل يملأ قلبي في أنني سأتعلَّم ما أريده يومًا ما! وسأرتِّل القرآن مثل صديقتي وأبيها!

أخذتْ نَفَسًا عميقًا، ثم قالت: مات أبي، وقررنا أنا وإخوتي أن يكون جُلُّ ميراثنا منه لأداءِ فريضة الحج، وقد كان ذلك بالفعل، سافرتُ للحج والعمرة وأعانني أخي أن أظلَّ هناك في مكة أربعة أشهر، بعد الأسبوع الأول بدأ يُداهِمني الفراغ، ولا أعلم مَن الذي أخذ خيالي وعقلي وذاكرتي وقذف بهم فجأةً لصديقة الابتدائية، التي لم أرَها منذ عقود، وملأ سمعي بصوتِها وهي ترتل القرآن، وكأن هاتفًا يناديني: هذا وقتك لا تفلتيه! فتدمع عيناي، وأكلم نفسي بصوت مسموع: لقد حان، لقد حان!

اشتريتُ مصحفًا في نفس اللحظات، وبدأت (تهتهة)، ثم قراءة، فتجويد، فحفظ!

وجدتُ عونًا من الناس في تلك الفترة، وكأنهم جندٌ مرسَلون لتعليمي، فلا أعرفهم ولم أطلب منهم، ولكن الله أرسَلهم لي!

قالتها والدموع تتصبب من عيونها: (نعم أرسلَهم لي ليرُزقني القرآن عندما وصلت الستين من عمري، ولكنه يعلم -سبحانه- أنه كان حلم عمري منذ أدركت الحياة)!

انتهىٰ حديث (حياة)، وبقيت دموعها تُضفِي شبابًا ونورًا علىٰ وجهها، فسبحان الودود الذي ننسىٰ ولا ينسىٰ، ونَعجِز ويُلهِم ويُدبِّر.

الرائع في (حياة) أن غالب حديثها بألفاظ القرآن، وكأن معجمها الذي اكتسبَتْه علىٰ مدار عمرها تبدَّل أو عاد لصورته الأصلية التي خُلق عليها.

ما أعظمَ حظَّك ورزقَك يا (حياة)!

صدقتِ فوَهَبك الكريم سبحانه فوق ما رجوتِ، ولا أرىٰ من خلال حواري معها إلا أن هذا الفضل يعودُ للقدوة المميزة في حياة الإنسان، فقد اقتدت بصديقة صالحة، وشقيقٍ بهر عقلَها من الصغر، وبقيَتِ الفطرةُ تحثُّها علىٰ الوصول لنفس

المكانة وحيازة ذلك الفضل، ثم الصدق مع الله ﷻ في النية، والمحاولة وعدم اليأس، فما أغناه وأكرمه ﷻ!

ما ضره شيءٌ لو أعطىٰ كلَّ إنسان سُؤْله، إلا أنه يختبر الهمم، ويبلو القلوب؛ أتُقبِل أم تكون من المعرِضين؟

انتقُوا لأنفسكم وأولادِكم قدوةً يصْبُون إليها، واصدُقوا معهم، وعلِّموهم الصدق، ولا شك أن الله سيُغنيكم ويغنيهم من فضله.

حبًّا وكرامة

يكثُر الحديث حول الأم في شهرِ مارس تحديدًا، بغضِّ النظر عن مشروعية ما يسمىٰ بيوم الأم أو عدم مشروعيته، وهو الأرجح عندي؛ فإن الأم عالم واسع جدًّا عما يتخيله العقل، الأم انعكاس لرحمة الله في هذه الأرض.

فكل معنىٰ مجرد قد لا يستوعبه العقلُ البشري كالرحمة مثلًا، جعل الله عليه دليلًا في الحياة، ثم ألهَمَنا خيطًا عقليًّا لتدبُّر هذا المعنىٰ من خلال ذلك الدليل، وامتدح أهلَ التدبر والتفكر في كثير من الآيات والأحاديث؛ لأنهم يرون هذه المعاني المجردة وهي متجسدة في مخلوقات الله، ثم يستنتجون العِبرةَ من كل قضاء ببصائرهم وألبابهم اليقظة، فقد قال عز وعلا:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال ﷺ: «**تفكُّر ساعة خيرٌ من قيام ليلة**»، فمن تفكَّر في طبيعة قلب الأم، علم أنه انعكاس لرحمة الله الواسعة علىٰ أرضنا هذه.

وردًّا علىٰ مَن ينكر علىٰ الأمهات بعض القسوة التي ربما يُجبَرن عليها، فهي قسوة المحبِّ الحنون، قسوة مَن يؤذيك ليصلحك، مَن يجرحك ليشفيك، ومثل هذا نرىٰ في سنن الله ﷻ، فقد كتب الابتلاء علىٰ بعض عباده، وما من عاقل صاحبِ تدبُّر إلا وأقرَّ أن هذا البلاء في كل حالاته مغلَّفٌ بالرحمة بلا شك، ربما لا تتكشف لنا الحكمة سريعًا، لكننا غالبًا نصل لها، وذلك من مواساة الله للقلوب ورحمته بالعباد، وكذلك قسوة الأم إن وُجدت، ولله المثل الأعلىٰ.

ومن عظيم ما وهب الله للأم بركةُ الدعاء، حتىٰ إنني أشعر أنه أوكل إليها شأن أولادها في حدود معينة، وذلك من خلال حفاوته بدعائها؛ لأنه هو الخالق الذي يعلم كيف صاغ قلبها، جلَّ من صنَع وعظُم من وهب!

سأذكر موقفين دعت لي فيهما أمي دعاءً عفويًّا، وحتىٰ الآن لا ينقضي عجبي من قَبول الله ﷻ، والعجب كل العجب أن قبوله الدعاء يكون متناسبًا مع كرمه وملكه، وليس مع خيالنا أو معطياتنا القاصرة.

الموقف الأول:

كنت طفلة صغيرة لم أصل للعاشرة من عمري، وكنت كثيرة الحركة، واهنة القوة، وكانت جدتي ﷺ امرأةً ريفية حازمة، وتصر أن تحمِّلني ما يفوق طاقتي أحيانًا في هذا العمر، وعندما أَعجِزُ ولا أفعل، تشكوني لأمي؛ معللة ذلك بأنني يومًا ما سأحمل مسؤوليةَ بيت كاملة وحدي، وذات مرة وجدت أمي تردُّ علىٰ جدتي بأن تترك ما في يدها وترفعها للسماء داعيةً اللهَ أن يجعل لي خادمة متىٰ تزوجت، ولا يحملني فوق طاقتي، ضحكتُ وتركتُ أمي وجدتي، وعُدْت للَهْوي مستنكرةً دعوةَ أمي، وكأنني سمعت شيئًا من الخيال؛ فثقافة الخادمة ليست موجودة في مجتمعنا! ومرت السنوات ونسيت الموقف، ثم يشاء الله أن أُرزق خادمة بعد زواجي بستة أشهر، وتستمر معي قرابة عشرين عامًا وأكثر! كلما نظرت لهذه الخادمة تراءت لعيني صورة أمي وهي تقذف بما في يدها وترفعها للسماء داعية لي بهذه الدعوة، وكيف استجاب الذي يعلم الغيب، وعلىٰ هذا الوجه من الكرم سبحانه سبحانه!

الموقف الثاني:

بعد رحلة غربة ليست بالقصيرة، تراءىٰ لي أن يكون لي بيت بدلًا من شقة؛ حتىٰ يكون أولادي حولي، وقد بقيت عامين أو أكثر أبحث عن موقع أشتريه لأبنيَ عليه بيتًا، سبحان الله نجد الموقع ونتحمس له ثم لا يتم الأمر، ويحدث هذا مرات متعددةً، حتىٰ وفَّقنا الله لموقع اختاره لنا حيث كانت دعوتي آنذاك بعد الملل من عدم التوفيق: (**اللهم ارزقنا بيتًا نرىٰ منه السماء، ويعيننا المقام فيه علىٰ حسن عبادتك**)، ثم أوكلت أمري لله حتىٰ يسر لنا برحمته شراء الأرض.

وقبيل سفري أخذتُ أمي لترىٰ قطعة الأرض التي رزقني الله إياها بعد عناء من البحث ومن الغربة!

فما كان منها عندما وقفتْ عليها إلا أن أخذت تبكي!

أثارني الموقف، توقعتُ أنها لا تعجبها، أو أنها تشفق عليَّ من أمر ما، فسألتها: فيمَ البكاء يا أمي؟

قالت: في الشتاء الماضي جئت للطبيب هنا في هذه العمارة المقابلة، ثم أعجبتني المنطقة فوقفت تحت هذه المظلة اتقاءً للمطر، ودعوت الله أن يجعل لك بيتًا في هذه المنطقة.

- إذًا ماذا يبكيك يا أمي؟

- أبكي من كرم الله، أيجعل المكان الذي كنت أقف فيه تحديدًا هو جواب دعوتي، وهو فوق ما تمنيت لك؟!

الله يا أمي..

كيف لعاقل أن يجعل لك يومًا، والعمر لا يكفيك برًّا وتحنانًا؟!

إن لم يكن ولاءً للتربية، فحبًّا وكرامةً لقلبك الذي لا يعرف عمقَ رحمته إلا خالقُه، ولا أراه صنع إلا من نور!

- استمطروا دعوات أمهاتكم..

- خسِر مَن لا يفعل!

- حياة الأم فرصة فاغتنمها!

- ربِّ اجعل ميراث كل أمٍّ الجنةَ!

لـــــولاه

ما أيقنت أن الإسلام دين سماوي

بين اليقظة والوهم، وهما يتباريانِ أيُّهما يكون له السيطرة علىٰ عقلي، وأخَذ كلُّ واحد منهما يتفنَّن في استمالتي، فيعرض عليَّ ما يُبقيني أكبر وقت ممكن تحتَ سطوته!

وكانت الجولة الأولىٰ للوهم، فأذهبني لقبر رسول الله ﷺ، وضرب لي هناك مجلسًا دائمًا، وضمن لي ألَّا أجوعَ في مجلسي هذا ولا أتعرَّىٰ.

يا إلهي! ما أسعدني! إنه جوار الحبيب! فبتُّ أروي شوقي إليه، ومنه، ثم سبقني لساني ليبوح له بمكنون نفسي:

يا سيدي، يا شفيعي، يا حبيبي، دعني أتلمَّسْ قبرك، لا تنزعج؛ إنني هادئة مستكينة، هادئة رغم صخب قلبي بحبِّك، فما هي إلا مشاعرُ هادرة لا تنافي خفض صَوْتِي بين يديك!

يا نور القلب ومُنىٰ العين، يا مرسَلُ رحمةً، لا بل يا رحمة ما وسعها شيءٌ، اشفع لي، لا بل انصرني، ارحمني، تقبَّلني، اغفر تقصيري، دعني أقتربْ أكثرَ لأمسح وجهي بمقامك

الشريف، لا، لا يُشبعني هذا، دعني أسجدْ أمام قبرك؛ لتهدأ جوارحي وتستكين بين يديك، وتسبح نفسي في قدسيَّة رُوحك المحلِّقة فوق رؤوس الخلائق، دعني أعطِّرْ وجهي، اسمح لي أن أمسحه في جدار قبرك، إن طيبك سينبعث علىٰ قلبي فأطير سعادة، ثم تفوح سعادتي لأُسعد الآخرين، وأفيض عليهم بما أستمدُّه منك من قداسة ورحمة وعطاء، إنه الخير عينُه، دعني أسجدْ قريبًا قريبًا!

صاحتِ القبلةُ: هنا، هنا، السجودُ هذا الاتجاه، أنتِ هكذا تسجدين للقبر، صحت فيها: لا عليك، لا عليك! أريد رواء قلبي! إنني سأسجد هنا، هنا لهذه الأنوار السماوية القُدسيَّة، صاحت القبلة: لا، لا سيغضب هكذا رسول الله، توجَّهي للقبلة فهي وِجهة سجودك، قلت لك: لا!

هنا خشي الوهم أن يوقظ هذا الجدال اليقظة فتنتصر عليه، فقرر زيادة خشوعي واستسلامي فجاءني بيد الرسول يمسح بها علىٰ رأسي ليشعرني بالقبول، يا ألله! إنها الجنة! إنه حبيبي! سيدي، مولاي، جنتي وناري بيديه! أخرج يده الشريفة ومسح بها علىٰ رأسي!

هال اليقظة ما رأت فقررت التدخُّل وأوقفت كلَّ ما لا يرضي حبيب الله، منعتني من السجود للقبر وأجبرتني علىٰ التوجُّه إلىٰ القبلة، منعتني من الإسراف في تمجيده، وأجبرتني في مناجاته ألا أقول إلا عبد الله ورسوله، ثم صفعت عقلي ليطرد شيطانًا لبَّس عليَّ وأوهمني أن رسول الله أخرج يده ومسح علىٰ رأسي، وضربت الأسوار العالية بيني وبين القبر، فهو حجر لا يضرُّ ولا ينفع!

وبعد أن شدَّت القيود عليَّ، تركتني لتقتل الوهم الذي كاد يضلُّني؛ بل يرديني!

بعدها وجدت ذلك المجلس الذي ضُرب لي بجوار قبر الرسول -عليه الصلاة والسلام- لا يعدو أن يكون سجنًا مع أنه بجوار قبر الرسول، فما بالكم بغيره؟!

ففي حضور اليقظة لا أستطيع السجود إلا لله دون القبر، ولا يشفع النبي ولا ينصرني، ويرحمني، ويقبلني، ويغفر تقصيري إلا الله دون الوهم، ولا يمجَّد بما هو أهله إلا الله دون خلقه.

فزعت، شكوتُ لرسول الله: إنك بركة الدنيا، كيف يمنعونني منك؟ فأُلقي في رُوعي: أتحبِّينني أم تحبِّين الجدار؟ أتعبدين الله أم ربُّك هواك؟

أتتَّخذين وسيطًا بينك وبين الله، في حين أنه فتح بابه لك في كل وقت، وبكل حرية، وبكمال الستر وتمامه؟!

أتستبدلين الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير؟!

أيسمعك الله من كل مكان وفي جوف الليل وقاع البحر وقمة الجبل، ثم تسجنين حاجتك حتىٰ تأتي لقبري رغم أن أبواب السماء مفتَّحة؟!

هنا انتصرت اليقظة وعلمت أنه:

لولا التوحيدُ ما آمنتُ أن الإسلام دين سماويٌّ.

الصبر وقود الإحسان

قال رسولنا ﷺ: «**إنَّ الله ﷻ كتَب الإحسانَ علىٰ كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسِنوا القِتْلة، وإذا ذبَحْتم فأحسِنوا الذِّبْحة، وليحدَّ أحدكم شفرتَه، وليرِحْ ذبيحتَه**».

لن أتناول معكم شرحَ الحديث فهو واضح ومعلوم للجميع، لكني سأحاول اتِّخاذه مدخلًا لحلِّ العديد من المشاكل التي تؤرِّق حياتنا علىٰ مختلف أعمارنا وأيًّا كانت أعمالنا.

فبدون إحسان لن نشعر بلذَّة ما نؤدِّيه، ولن يكون علىٰ مراد الله سبحانه، وبالتالي النتائج كذلك ستكون ليست علىٰ مرادك.

حل معظم مشاكلنا يبدأ من الوقوف مع أنفسنا، وكل عمل تؤدِّيه، اسأل نفسك بعده:

هل أدَّيتَه بإحسان؟

وما التقصير إن وجد؟

وكيف أجبره؟

وبمن أستعين؟

واللهِ سترىٰ الحياةَ مختلفة، وستحب عملك أيًّا كان.

- أبدأُ من الطالب؛ فالمادَّة التي يحسِن دراستها تكون هي المحبَّبَةَ إليه، ولا تستجلب له معصية الغشِّ مثلًا؛ بل يُرزق بسبب إحسانه حب معلِّمه.

- أنتِ أيَّتها الأم، جرِّبي مرَّة أن تحسني تَقديم الطعام -فقط طريقة التقديم- وانظري ما سيَحدث لنفسيَّة الأولاد والزوج، وما ستحصدينه من سعادة بكلماتهم وباستمتاعهم بطعامك، ناهيك يا حبيبة عن إحسان طَهْيِه ومذاقه.

- أخي الزوج، هل قيَّمتَ يومك؟ كم تعطي نفسك نِسبة لو أحببتَ أن تقيس مدىٰ إحسانك لهذا اليوم؟

كن صريحًا مع نفسك وطوِّرها، طوِّرها كعامل في وظيفة ما، كأخٍ، كزوج، كابنٍ لك والدان يتمنَّيان رؤيتك والاستماع إليك ولو لحظات.

- كل طائفة تقيِّم نفسَها، وتبدأ في التزام الإحسان كمنهج حياة، كن مخلِص النيَّة في ذلك لله، وراجيًا فضله، وراقب نفسك بعد ذلك، وقارِن حياتك قبل الإحسان وبعده، وترقَّب فضل ربِّك صادقًا في اتباع أمره.

- نـأتي لنمـوذج حـيٍّ أذهلنـي في الحقيقـة؛ وهـو في الإحسان، لكن علىٰ مستوىٰ الدول لا الأشخاص..

الدول العربيَّة التي أمرت بالإحسان ولـم تحسِن، ودولـة واحـدة غربيـة عرفـت فضـلَ الإحسـان فلزمَتْـه، تـابع معـي -يا رعاك الله- هذه النِّسَب.

- سويسرا: صرح اقتصادي ضَخم، والجميع يعلم ما هي عليه من قوة اقتصادية.

في سويسرا لا توجد موارد مثل عالمنا العربي؛ أي: إنَّها ليس لـديها ثـروات طبيعيـة (نفـط، أو ذهـب، أو معـادن...)، ولا تملك إلَّا الموارد البشرية فقط.

سويسرا

العرب

البطالة ٣٪

البطالة طاغية

المساحة ٤٠ ألف كم٢

١٣ مليون كم٢

السكان ٨ ملايين

٣٨٩ مليونًا

ورغم قلَّة الموارد ما نهضت سويسرا إلا بالإحسان!

- سويسرا بها ٦٠٠ مصنع للجبن فقط، كل مصنع يوظف سنويًّا آلاف الشباب، والجودة هي الأولىٰ عالميًّا.

- صناعة الساعات تُدخل ربحًا سنويًّا لسويسرا مليار دولار.. (ألف مليون) من الساعات فقط...

أسمعُ من يردِّد:

- إنَّ الفساد الذي يعم بلادنا هو السبب.

لا أنكر ذلك، ولكن تدبَّر يا سيدي البلاد العربية التي يقلُّ فيها الفساد، هل أصبحتْ منهم دولة صناعية واحدة؟!

الجواب: طبعًا لا.

لأننا لا نحسِن أولًا قيادة عمرنا لأننا لم نحسن استغلاله.

علاج الفساد سيدوم طويلًا! هل نحفر حفرتنا وننتظر الموت؟

ابدأ أيها المسلم، ابحث عمَّا تحسنه وتميَّز فيه، حدِّد لك ميزة تعلمها عن نفسك، أو يدلُّك الآخرون عليها.

أنت أيتها المسلمة: ماذا تجيدين؟

ابدئي، تعرَّفي علىٰ نفسك، ابتكري شيئًا تجيدينه، وتعلِّمي إحسانه، ولا مانع من بداية مشروع صغير في أيِّ شيء تحسنينه حتىٰ لو الطهو!

لا تستغربي، اختاري نوع طعامٍ تحسنين إعداده، وأعدِّي، وأعلني، وأحسني، واصبري، ووالله -الذي فرض علينا السبب مع التوكُّل- لن يخذلك الله.

ولنصبِر؛ فالطريق ليس محفوفًا بالورد؛ بل الأشواك، حتىٰ يتعلَّم الإنسان ويتمكَّن من السبب، فيغدق عليه الله نِعَمه وهو الكريم جل في علاه.

تذكَّروا دومًا:

- (الصَّبر وقود الإحسان والإتقان).

الأندلس

اسم لا يطير إلىٰ مسامعنا إلَّا ويجري معه إلىٰ عيوننا بريقُ الدِّين والعلم والجهاد.

اسم تمتلئ معه نفوسنا بالعزَّة والكرامة.

اسم ما إن ننطِق به إلَّا وتكتحِل عيناك بأفانينِ العمارة والزخارف والحدائق الغنَّاء، ورائحةِ الزَّهر والورد وعطاء الزَّيتون!

- الأندلس!

إن حاول العقل استجداءَ صورة للجنَّة، فلا تعدو أن تكون أندلسُنا هي تلك الصورة!

اسمٌ عَلا فأرهب أعداءَ الدِّين علُوُّه، فاستخدموا سَيْفَهم بطيءَ الوَقْعِ ناقِعَ الفعل والبَتْر، استخدموه ليسلبونا عطاءَ ربِّنا عندما كنا أهلَه، سَيْفُهم هو (الدنيا)، وما إن يتغلغَل حبُّها في النفوس إلا ويدبُّ الوهَن في الدِّين والمُلك، وتُنزع محبَّةُ الجهاد من النفس؛ فنخضع ونرضىٰ لاستبقائها، ويا حسرةً عليها وعلينا، فما هي بباقية!

نعم، هذا سلاحهم الذي حاربونا به وما زالوا، ونحن

ما زلنا في غفوَتنا بين متَّهَم في دينه، أو ضالٍّ أو مضلٍّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وهم كذلك ما زالوا ينفِّذون خطَّتهم؛ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢].

يجاهدون من أجل الباطِل، ويَهَبُون أعمارَهم وأموالهم في عزيمة ورضا، ونحن نعجز عن تَقليدهم في سبيل الحقِّ لا الباطل، حقًّا كما قال عمر -أرضاه الله-: (اللهمَّ إنِّي أشكو إليك عجزَ الثِّقة وجَلَد الفاجر).

تبًّا لنا إن لم نَستيقظ ونُفيق من غَفْوتنا، إنَّ الكفَّار والمشركين يمكرون لنا بالليل والنهار، ونحن نتَّبعُهم شبرًا بشبر وكأنَّنا مغيَّبون.

وأهل الكتاب كاللَّغَم، لا يمنحوننا فرصة الوجود إلا إن ضغَطنا عليهم بأحذيتنا، فإن وجدوا منَّا تهاونًا ثاروا وكانوا أشدَّ فتْكًا بنا!

لن أتحدَّث عن الأندلس من الزاوية التاريخية؛ فقد أُميتتْ بحثًا، فقط سأنقل مشهدين إليكم، يعبِّران عن مصيرنا إن لم ننفض غبار الدنيا عن أكتافنا، ونهُبَّ للدِّين الحقِّ الذي أتىٰ به رسولُ الإنسانية ﷺ وعلىٰ بصيرة من هَدْيِه.

المشهد الأول: من كتاب العبرات للمنفلوطي:

مجرَّد شاب، صَعَقت قلبَه ذكرىٰ طفولته، فقرَّر العودة لغرناطة سرًّا ليتلصَّص علىٰ قصر أبيه؛ علَّه يجد ريحًا منه يسكن معها قلبُه وينير بصيرته، فانظروا ماذا حدث له وكل جريمته حياة قلبه!

وقف الأمير أمام قضاة مَحكمة التَّفتيش، فسأله الرئيس عن تهمته، فأنكرها.

فلم يحفل بإنكاره وقال له: لا يدلُّ علىٰ براءتك إلَّا أمر واحد؛ وهو أن تترك دينَك وتأخذ بدين المسيح.

فطار الغضب في دماغه، وصرخ صرخةً دوَّت بها أرجاء القاعة قائلًا: في أيِّ كتاب من كتبكم وفي أيِّ عهد من عهود أنبيائكم ورسلكم أنَّ سفك الدَّم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ولا يدينون بدينكم؟!

- من أيِّ عالَم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التي تصوِّر لكم أنَّ الشعوب تُساق إلىٰ الإيمان سوقًا، وأن العقائد تسقىٰ للناس كما يسقىٰ الماء والخمر؟

- أين العهد الذي اتَّخذتموه علىٰ أنفسكم يوم وطِئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحرارًا في عقائدنا ومذاهبنا؟ وألَّا تؤذونا في عاطفة من عواطف قلوبنا ولا في شعيرةٍ من شعائر ديننا؟

أهذا الذي تَصنعون اليوم والذي صنعتم بالأمس هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود؟!

ثمَّ حاول الاستمرار في حديثه، فقاطعه الرئيسُ، وأمر أن يُساق لساحة الموت التي هلَك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلًا أو حرقًا.

فسِيق إليها، واجتمع الناس حول مصرعه رجالًا ونساء، وما جرَّد الجلَّاد سيفَه فوق رأسه حتىٰ سمع الناس صرخةَ امرأة بين الصفوف، فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرَها، وما هي إلَّا غمضة وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذي ليس له مثيل!

يرىٰ المارُّ اليومَ بجانب مقبرة بني الأحمر في ظاهر غرناطة قبرًا جميلًا مزخرفًا؛ وهو قطعة من الرُّخام الأزرق الصافي، قد نُحتتْ في سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر، فيهوي إليها الطير ويَشرب منها، ونقشت علىٰ ضلع منه:

- هذا قبر آخر بني الأحمر! انتهىٰ.

المشهد الثاني: (لسُليمة) إحدىٰ أبطال قصَّة ثلاثية غرناطة؛ لرضوىٰ عاشور:

امرأة أذهلها موتُ أخيها وجدِّها، فوهبت حياتها لدِراسة الطبِّ ومعالجة الناس، ومجرد ما اكتشف القشتاليون وجودَ أعشاب وكتب في بيتها إلَّا واتَّهموها بالسِّحر، ولاقت من العذاب ما لا يَحتمله بشر، وإليكم نهايتها:

في يوم النُّطق بالحكم ساقوا سليمة مقيَّدة إلىٰ ساحة باب الرملة، وشقَّ لها الحرَّاسُ الطريقَ وسط الجموع المحتشدة لمتابعة المحاكمة، ثم التنفيذ، وكانت سليمة تجتهد في تحمُّل مشقَّة السَّير علىٰ قدمين متورمتين ملتهبتين من جراء التعذيب، وتحاول أن تتحاشىٰ احتكاك يديها المقيدتين من الرسغ خلف الظهر بعضهما ببعض أو بثوبها، كانت يداها ما زالتا تؤلمانها من أثَر القبض علىٰ قضيب الحديد المحميِّ بالنار.

لم تكن تتطلَّع لِمن حولها؛ بل شغلتها أفكارها، سيحكمون عليها بالموت، فلماذا لا تتزعزع أحشاؤها خوفًا ولا تصيح فزعًا أو ثورة؟

هل لأنها تمنَّت الموتَ وتضرَّعتْ إلىٰ الله تطلبه حتىٰ بدا الموت خلاصًا من عذاب لا تطيقه النَّفس ولا البدن؟

أم لأنها سلَّمتْ أمرها لله ككبار المؤمنين الذين تضيء السَّكينة والقبول قلوبهم، حتىٰ وإن لم يكن قضاء الله مفهومًا؟!

أم أنَّ الأمر بعيد عن ذلك، وأنَّها قرَّرت بلا تفكير ولا تَدبير أنَّها لن تهين نفسَها بالصُّراخ والتضرُّع أو حتىٰ بلا ارتياع؟!

فلن تضيف علىٰ المهانة مَهانة، والعقل في الإنسان زينة، والكبر في النفس جلال!

نطق القاضي:

- حكمنا عليك وأنت واقفة أمامنا هنا في ميدان باب الرَّملة أنَّك كافرة لا تَوبة لها، عقابها الموت حرقًا!

وصخبت الأصوات، وحُكم عليها بالحرق حيَّة، وهي ما تزال تغض النَّظر حتىٰ لا ترىٰ ضحكات القشتاليين ونظرات الظفر في عيونهم!

أو ترىٰ عيون المسلمين تفيض دمًا بدل الدمع.. انتهىٰ.

كل ما قرأت ليس عنك ببعيد إن لم تَعُد لدينك علىٰ منهج نبيِّك؛ فقد كانت الأندلس أولىٰ بلاد زمَنها في كلِّ مجال، ونحن الآن في آخِر الصفوف؛ إذًا سقوطنا أسهل إلَّا أن يَبعث الله الدِّين علىٰ أيدي رجال منكم صدَقوا ما عاهدوا اللهَ عليه، وهذا رجاؤنا.

أنا أخوك فلا تبتئس

أتىٰ الربيع ببهجته، وذهب الشتاء ببرودته، حلَّ الزهرُ محل الثلوج، فزيَّن الأشجار بألوان الحياة، وعادت الطيورُ من بياتها لتعزف ألحان الجمال، شُرعت نوافذُ البيت ليَتسلل في أرجائه النسيم المُعطر برائحة الياسَمين الذي يسيج بيتنا بأشجاره المتعانقة في حب وودٍّ كأنهم أشقاء..

مع كل ربيع كنت أشعُر أن الله يرينا جانبًا من الجنة؛ ليُصبرنا علىٰ الحياة، ولنشكره ونستشعرَ عظيم عطاياه، ونسعىٰ لإرضائه راجين رحمته وجنته، كنت أشعُر أن بلدتي (دَرْعَا) في الربيع هي جنة الله في أرضه، وأن بيتنا قصر مَشيد وسط هذه الجنة، في ساحته تكعيبة الياسمين، وتنتشر في حديقته الورود والرياحين.

تتجمع العائلة الكبيرة في الحديقة في المناسبات، فتعلو الضحكات، وتُحَلُّ المشاكل ونتبادل الآراء، عندما نعيش لحظات القرب مع الأهل، نستمد منها السعادة والمودة، حتىٰ تتكرر في موعد آخر، فنتزود منها بزاد آخر يزرَع في نفوسنا المحبةَ.

هكذا عشتُ طفولتي الجميلة التي نُقِش كلُّ يوم منها في عقلي بكامل تفاصيله، كنت أحب الخير للجميع، وكان أبي يَصحَبني معه وهو يساعد الفقراء واليتامىٰ، ويستقطع لهم جزءًا من خيرات مزرعتنا قوتًا أو مالًا، وربما كسوة أو دواء.. كان هؤلاء الفقراء يسمونني (ابن الكريم)، وكلما جمَعني بهم لقاء، كانوا يستقبلوننا بحفاوة وسعادة كبيرة، منبعها حبٌّ صادق من القلب ربَط به الله بين قلوبنا، ولم يكن رباطًا لمنفعة دنيوية، كنت أشعر بالراحة والسعادة، وكان يزداد حبي لأبي كلما رأيتُ كرمَه، وهيبته في قلوب البشر.

ذهب الربيع وأتىٰ الشتاء مرة أخرىٰ، ولكنه لم يكن شتاء تَسْوَدُّ فيه السماء فحسب، بل كان شتاء اسْوَدَّتْ فيه قلوبُ البشر أيضًا، وامتزج فيه العقل بالجنون، وفي إحدىٰ الليالي الباردة المظلمة ظل البرق يلمَع، والرعد يزأر بصوت مخيف، حتىٰ إن النجوم اختفت من شِدته، والسحب بكتْ بمطر منهمر، شعرت بانقباض في تلك الليلة لا أعرِف مصدره، اعترىٰ البردُ كلَّ أواصري، وتملَّك الخوف من نفسي، لا أعرف ممَّ أخاف؟ هل من السماء أو من الأرض وأهلها؟

تجمعنا كلُّنا في غرفة واحدة علىٰ غير العادة، كنت أُمسك بيد أبي، ولا أريد أن أتركَها، بل أخاف أن أنام خشيةَ أن يسحبَ يدَه من يدي، مع الإرهاق والسهر غلَبنا النوم بلا إرادة منا، وقبيل الفجر سمِعنا طَرْقًا مفزعًا علىٰ الباب، استيقظنا جميعًا، ننظر إلىٰ بعضنا، وكأننا نتشاور في صمت: أنفتَح الباب أم نتجاهل؟ وقبل أن نقرِّر، وجدنا رجالًا غرباءَ اقتحموا الباب ووقَفوا فوق رؤوسنا يُحذروننا: اتركوا المكان فورًا، هناك قصف كاملٌ لدَرْعا بكل ما فيها ومَن فيها، يَصيحون: لا وقت للتفكير سيَسبق الطيران عقولَكم، اهربوا، اهربوا....

وقف أبي حائرًا، وصاحت أمي: أين نذهب؟ لا مأوىٰ لنا غير وطننا، نحن مسالمون، لن أترك بيتي، لا شأن لنا بكُمْ، نحن لا نريد منكم شيئًا، فقط اتركونا في بيتنا آمنين...

ركضتُ وأمسكتُ بيد أبي، وعندما شعر بيدي تُمسك بيده صاح: لا تَخَفْ يا فراس، لا تَخَفْ، وكأنه كان يقولها لنفسه وليس لي، ثم أكمَل حديثه: هيَّا خُذوا ما خَفَّ وزنُه من الضروريات، ولنذهب من هنا خلال ساعة، لن نستطيع البقاء هنا بعد اليوم، بكىٰ الجميع وصاحت أمي: كيف أحمل جدران بيتي؟ كيف آخذ معي عمري الذي نقَشته عليها،

لن أذهب، لن أذهب، فليَقتلونا هنا، كان وما زال بيتي وجنَّتي، لا مانع أن يُصبح مقبرتي أيضًا، لن أذهب...

تدفَّقت الدموع من كل عين شهِدت هذا الحدث، توقف العقلُ، تلاعَب بنا الأملُ، ضجَّت الأسئلة في نفوسنا، أين نذهب؟ وكيف سنعيش؟ ومتىٰ نستقر؟ وهل سنعود؟ لم تستوعب أدوات استفهام اللغة ما كان يجول بخاطرنا في تلك الدقائق!

غير أننا غادرنا البيت كارهين، وما هي إلا دقائق حتىٰ حوَّلته إحدىٰ القذائف إلىٰ خرابة لا يُقبِلُ الجنُّ علىٰ سُكناها بعد أن كان جنتنا المزهرة!

أخذنا ننظر إليه من أعلىٰ تل كان قريبًا منه، لم تتحمل أمي الصدمة، ظلت صامتة، لا تتكلم ولا تبكي، ولا ترد، حتىٰ وصلنا حدود (دَرعا)، وأوشكنا علىٰ مفارقتها، ففارَقت أمي الحياة، وكأن روحَها كانت معلَّقة بهذا التراب، كان الحزن والخوف أكبرَ من أن يَجعلاني أُبدي أيَّ انفعالٍ، خيَّم علينا الصمت، تحجَّرت في أعيينا الدموع، فلم تَعُدْ كافية للتعبير عما نجده، قرَّرنا الذهاب للشمال، لعلَّنا نستطيع اللجوء لأي مكان

آمنٍ، فقدر الله لنا أن نلتقي بالعم (جمال) وهو رجل من الذين كان يكفُل أبي أيتام قريته، وكان لديه من الخبرة بالأمور ما يَضمن لنا الوصول إلىٰ مكان آمنٍ، وساعَد أبي علىٰ العمل معه في التجارة، لم يصبِر أخي الكبير علىٰ هذا الضَّيم فتركنا؛ ليبحث عن فرصة عملٍ بأي دولة، لعله ينقذنا مما ينتظرنا، وكذلك زوج أختي الكبرىٰ أخذها وترَكنا هائمًا علىٰ وجهه لا يعرف ماذا يفعل؟ غير أنه يريد اللجوء لأي جهة تَنعَمُ ولو بفُتات من أمانٍ!

بقيتُ أنا وأختي الصغيرة مع أبي، وتَحوَّل الربيع في حياتنا إلىٰ شتاء دائم، فبعد فِراق الأم تتجمَّد المشاعر والقلوب، وتتحوَّل كلُّ فصولك إلىٰ شتاء قارس، ذهب عني الحنان بذَهاب أمي، وذهب الأمان بانشغال أبي، وذهب أُنسي ورغبتي في الحياة بفِراق إخوتي، وسكني.

بدأت أتكيَّف رغم مرارة الفقْد ومرارة الحياة، ورأيت وجهًا آخر للدنيا لم أعْتَدْ عليه، بل لم يصل إليه خيالي يومًا، وظننتُ أن هذا آخر صفعات الزمن علىٰ وجهي وقلبي، لكنه لم يَكتفِ، فقد اعتُقِل أبي بلا جُرمٍ، وبلا مبرِّر، غير أنه يبحث لأولاده عن قوت يومهم!

ما كان هناك بدٌّ من أن يتحمل مسؤوليتي العم جمال أنا وليلىٰ أختي الصغيرة، فذهب بنا إلىٰ القرية التي كان أبي يتصدق علىٰ فقرائها، فصاح أحد الأطفال عندما رآني: لقد أتىٰ ابن الكريم.

فقلت له والدموع تتدفق من عيني: بل صرتُ أخاك اليتيم! فاحتَضنني وقادَني إلىٰ بيته المتواضع جدًّا، فكان من رحمة الله أن صارت أُمه أمًّا لي ولأختي، فمسَحت علىٰ رأسي، واحتضنت أختي، وقالت: لا تَخْجَلا، فهذا البيت شراه لنا أبوكما يومًا ما، وآوانا فيه من الضياع، فما زلنا نحن المدينين لكم، فلا تنكسِرا ولا تَحزَنا، فاقتَسمنا معهم السقفَ والخبز، ولا عجب، فالناس كلهم أصبحوا لا يَملِكون إلا السقف وكِسرة الخبز[1]!

(١) هذه القصة كتبتْها مع ابنتي هدىٰ -طالبةٌ بالصف التاسع- بتوجيه مني لتشارك بها في مسابقة يوم اليتيم.

ومن يمحو من قلبك الأثر؟

جلستُ خلفَ نافذتي والجو شتويٌّ غائم، أقلِّب وريقات كتابي، وأستلهم من بين طيَّاته ما يَذهب ببرودة الشتاء من حولي ومن أواصري، وإذا بها تطرُق النافذة علىٰ استحياء، تأمُل أن أفتحَ لها، لكني تجاهلتُها مُنتبهًا لكتابي؛ علَّها تيأس وتذهب، غير أنها أصرَّت أن أفتحَ لها، واحتالتْ في ذلك كلَّ حيلة، تزيد وتيرة الطَّرْق، أنظر لها فتخجل كطفلة غشَّىٰ الحياءُ وجهها، ويهدأ طرقُها، فأُطيل النظر إليها مستمتعًا بجمال حيائها، فتتراقص بخفَّة، وترسم أشكالًا فنيَّةً مختلفة علىٰ زجاج النافذة وكأنها تستفزُّ خيالي بتأمُّل هذه الأشكال؛ حتىٰ لا أصرِف عنها نظري، فما كان منِّي إلَّا الخضوع لجمال ما تُبديه...

فتحتُ النافذة، وإذا بها تستقبلني استقبالًا مهيبًا اخترق قلبي، وأبدل برودةَ الجوِّ في نفسي بجَذوة الأمَل وحُبِّ الحياة، وما إن آنستْ مني قَبولًا حتىٰ أخذت تمسح وجهي برحيقٍ كوثريٍّ يُضاعف الحياة في رُوحي، ثم تُعطِّر أجوائي برائحة الطيب والزهور، وتَزيد في استرضائي فتُثير رائحة كرائحة الأرض عند المطر التي لا تُفلِتُ قلبًا إلَّا وامتلأ لها حُبًّا، وبها

انبهارًا، يا لها من ساحرةٍ جعلتني أنقاد لها راغبًا!

إنها سِرُّ الحياة... قطرات المطر!

أخذتُ أمسح بها وجهي تبرُّكًا؛ لأنها حديثةُ عهْدٍ بربِّها كما وصفها حبيب الرحمن ﷺ ثم ملأتُ كفِّي منها وشربتُ، فكأنَّ ماء الحياة سرىٰ في جسدي، ثم أمسكتُ بيدها، وانطلقنا لحديقة غنَّاء أمامنا، تفوح بالطيب والريحان، وتُسْعد العين بألوان الجنان، فتُحلِّق الرُّوح في ملكوت الحنَّان المنَّان، ويتلاشىٰ أمام العقل كلُّ سُلطان إلَّا سُلطانَ ربِّ الأكوان، ويخشع القلب لواضع الميزان، مُتأمِّلًا كتابَه المنظور، الذي يَشفي الصدور ككتابه المسطور...

فغارت الشمس، وأبَتْ أن تُطيل في غيابها، فأرسلت بعض أشعَّتِها الفضيَّة، وأطلَّت علىٰ استحياء من مخبئها خلف الدِّيَم لتُشاركنا سعادتنا، فوثبت قطرةُ المطر فرحةً بها، وقالت:

تعالي معي، سأعترض هذه الأشعة لأملأ الكون بهجةً بألوان قُزَح، فركضتُ معها كطفل لوَّح له أبوه (ها أنا ذا بعد غيابٍ جئتُ لكَ ومعي ما به تحلم)..

فقطعت القطرة شعاع الشمس، وإذا بقوس من الألوان

مُبهج ينثر السعادة من بين يديه ومن خلفه، ويُظلِّل عنان السماء بألوان ما كان ليُرتِّبَها إنسانٌ بهذا التناغُم والتدرُّج المعجز، سبحان الخالق الوهَّاب!

وكعادة الإنسان بعد استيفاء المتعة يُصيبه الفتور فيطمع في المزيد، سألتُها:

هل لي أن أصعد معكِ لقمَّة هذا القوس؟

هل لي أن أرىٰ الصورة كاملةً؟

هل لي أن أتخلَّص ولو للحظاتٍ من الْتِصاقي بالطِّين هنا؟!

فأطرَقَت، وكأنها لا ترغب، غير أنني ألححتُ عليها، فاستجابت مُحذِّرةً إيَّاي بأن الجهل بكثير من ملامح الحقائق خيرٌ من أن نَصْلَىٰ سعيرها إن أحطنا بها كاملةً بعد خبرها!

لم أعبأ بنُصحها، وأخذني بريقُ الجديد الذي يذهل النفوسَ ويُقلِّل سُلطان العقل عليها، فصعدتُ لأعلىٰ نقطة ممكنة فوق هذا القوس الوهَّاج الجميل، وتساءلت:

تُرىٰ ما ألوان الجنة؟

وبقيتُ أتأمَّل خلق الله من حولي، هذه السماء مرفوعة بلا عَمَدٍ، وتلك الأرض مبسوطة مُسخَّرة بخيراتها، وهذه الجبال تحمل الخير والثبات، وكل شيء رغم شموخه ساجدٌ لله العليِّ، إنها لوحة إلهية متكاملة تُجبِر كلَّ خلايا جسدك علىٰ الخشوع لمالك الملك بارئ الحَبِّ وفالق النوىٰ، سبحانه مُحيي القلوب بالحُبِّ ومجزٍ به ظلًّا وأمْنًا.. كما أحيا الأرض بالمطر فأثمرت جمالًا ونبْتًا..

انتشيتُ بالنظرة العابرة، ثم أخذتني التفاصيل؛ فهي دأب النفس ومفتاح جذبها، فوقعت عيني علىٰ الإنسان!

هنا فقط تذكَّرتُ نصيحة قطرة المطر؛ حيث سمعتُ صوتًا مخنوقًا من طفل ملائكيِّ الوجه، يُنازعه الموت، ويُردِّد بآخر رمق بقي له من حياة: (بأروح عند الله، وأُخبرُه عنكم كَمْ تُعذِّبونا!).

غيرتُ وجهتي سريعًا، فلم أحتمل دموعه ودماءه، فرأيتُ طفلًا آخَرَ يَصيح بأبيه المقتول: (أبي، لا تخليني من شان الله، لا تخليني لهم، خُذني معكَ!)، وشابًّا مُقيَّدًا يصرخ: (اقتلوني ولا تغتصبوا ابنتي وأمِّي!)..

رأيتُ حقًّا يُذبح، وباطلًا ينتفش، رابتني الصورة، أغمضتُ عيني، فالبشر قلوبُهم جدباءُ لا تُمطر ولا تنبت..

صِحتُ في القطرة:

ليتني لم أستجب، عُودي بي حيث المطر.

فبادرتني وهي آسفة كسيفة الخاطر:

ومَنْ يمحو من قلبك الأثر؟

٥- كسر القوارير

وفي إحدىٰ هذه الليالي، عادت رانيا وأبي بعد صلاة الفجر مِن بيت أبيها، صعِدت لشقتها فوجدَتْ محمدًا أخي يجلس في الساحة الفارغة علىٰ سطح البيت أمام شقة رانيا، ملتحفًا عباءة الحزن التي يرتديها غالب الوقت، جلست معه في محاولة منها لخَلْع هذه العباءة عنه، موضِّحة له: ماذا يحزنك يا محمد؟ أنا زوجة أبيك، مثل أمك! فلم تكُنْ هكذا قبل أن أتزوَّج أباك! فقد كنتَ مضرِبَ المثل عند أمي في الحيوية والانطلاق، أرىٰ فيك شيخوخةَ قلبٍ لا تعجبني، القلب الشاب يا محمد ينبهر بعمق، يحزن بعمق، ويفرح بعمق، ويصرخ بعمق، ويرقص بنفس العمق، أما أنت فلا يدهشك شيء... لماذا؟

ألم تحبَّ امرأة؟!

وقعَتْ عليه هذه الكلمةُ كصاعقة... هو لا يُطْلِع أحدًا علىٰ قلبه، بادرَتْه: لا تُجِبْ إن كنت ستكذب، تعجَّب مِن جرأتها، ومِن رفقها به، استجمع محمد طاقته، ووقف لمرافعة جديدة، أتوقعها الأقوىٰ والأصدق في حياته، همَّ بالكلام ولكنه تراجَع، ثم قام وتجول في مساحة السطح الفارغة، نظَر

لسماء الإسكندرية بعد الفجر، التي يمتزج فيها النورُ بالظلام، بالهواء بالرطوبة، قطف زهرةً مِن تكعيبة الياسمين التي تحيط بسور السطح، أحكَم أجفانَه علىٰ دموعه، ثم قال: أصدقُ كلمة سمعتُها في وصفي: شيخوخة القلب.

كيف وصلتِ لهذا التعبير؟

وما الذي أوحىٰ لكِ به؟

- كلُّ تصرفاتك تنطق بشيء يُحزنك، تُطبِق عليه إطباق الغريق علىٰ طوق النجاة لا يُفلته. بُحْ لي، ربما أساعدك!

تردَّد، ثم قال: كنتِ الداء، فهل تملِكين الدواء؟!

- كنتُ الداء؟! هل تقصِد بزواجي من أبيك؟!

نعم، قلبتِ حياتنا رأسًا علىٰ عقب، بسببك هجَرْنا البيت، وعِشْنا في قرية لا نعرف فيها أحدًا، ولا نُجيد عاداتها وتقاليدها، عشتُ حياة اللاجئ وأنا في وطني، تصدَّق علينا مَن هم أفقر منا، سخِر منا أوضعُ الناس؛ فكل إنسانٍ يرىٰ الآخرين بعين طبعه!

أحسَن الظنَّ فينا البسطاءُ، واتَّهَمنا في شرفنا الخبثاء...

مَن منهم كان يصدِّق أسباب أمي لهجر بيتنا، خاصة بعد أن أوضحت صديقتها أم علي للناس أننا مِن أهل الغنىٰ والستر، علىٰ الأقل في نظرها، ومع المرارة التي تسكنني كنتُ هادئًا، أُظهر رغبتي في عودة أمي إلىٰ هنا، وأدافع عن التعدُّد بكلام حفِظته، وودتُ لو استوعَبه الواقع...

أتعلَمين ماذا كنتُ أقرأ في العيون؟!

كنت أقرأُ اتِّهامهم لنا في شرف أختي، وأننا هربنا بـ (أمل) إلىٰ هناك حتىٰ نُبعِد الفضيحة عن منطقتنا.

هل تصدِّقين أن إحدىٰ النساء ذاتَ مرة وهي تشتري من أمي دخلَتْ علىٰ (أمل) غرفتَها، وأمسكت ببطنها؛ لتتأكد أنها حاملٌ من الحرام أم لا؟!

هل تعلَمين أن إحداهن سألتها: أين أسقطتِ الجنين؟

وثالثة سألتها: أين ستقومين بوضع غِشاء بكارة جراحيًّا؟

لا أُنكر وجود الطيبين، ولكن رجلٌ خبيث واحد هو في قومه كقطرةِ دماء في كأس مِن الحليب، تُفسد الكأسَ كاملًا، رغم أنها قطرة واحدة.

انتهىٰ مِن مرافعته، ونظر لرانيا ليجدها غارقة في دموعها، تكاد لا تستطيع الوقوف، ترتجف أقدامها، وتصطكُّ أسنانها بشكل عصبي لا يمكن السيطرة عليه، وتُصدر أزيزًا مِن صدرها كغَلْيِ المِرْجَلِ؛ حتىٰ لا يسمع بكاءَها أحدٌ.

خاف، وارتبك، وصمت، ثم قال:

أنتِ مَن سألتِ، أنتِ مَن أردتِ معرفة سرِّ شَيْبِ قلبي، أرجوكِ، اهدئي، لا أريد مشاكلَ مع أبي..

ردت بصعوبة: لا تخَفْ، سأكمل حديثي معك لاحقًا، أخذها لبابِ الشقة، ثم نزل، وقد كانت الساعة أوشكت علىٰ الثامنة صباحًا، ارتدىٰ ملابسه وخرَج ولم يعُدْ إلا قبيل فجر اليوم الثاني.

ساد البيتَ شيءٌ مِن التوتر الصامت، الذي لا يستطيع تفسيرَه أحدٌ، ولا يعرِف أسبابه أحد، وكأن القلقَ شبح يتلبَّسُ بكل الأبدان، يُضْفي عليها بؤسَه، ثم يذهب..

عاد محمد، فوجَد رسالة علىٰ مكتبه داخل غرفته، قد وضعَتْها رانيا، فأخذه الفضول لفتح المظروف، ليعرِفَ مصدره، ولم يقرأ، بل نظَر لآخر الرسالة؛ ليعرِف مَن كتبها،

فوجد توقيع: **رانيا ضحية الضحايا**.

لم تكن نفسيَّتُه ترُوق لقراءة شيء؛ فقد قضىٰ الساعات السابقة شريدًا متضايقًا من عمله، ومرهقًا مِن جلوسه عند البحر مع صديقه لفترة طويلة، ترك الرسالة، ثم قرر النوم!

وما أن استلقىٰ إلا وذهنه شرَد علىٰ الرسالة، أيكون حدَث شيء بعدما تركتُ رانيا؟

انتبه واستقام وفتح الرسالة، فوجَد فيها:

السلام عليكم..

لعلك بخير محمد، تحمِّلني ذنبًا لا يدَ لي فيه، وتُلقي علىٰ أكتافي عبئًا لم أعلم عنه شيئًا.. ترىٰ نفسك الضحية وأختك كذلك، وتراني أنا الجاني.. ترفَّقْ بي يا أخي وولدي؛ كلُّنا ضحية ذلك المجتمع السقيم، الذي وُهب أهلُه عقلًا ليملأَ فراغ جماجمهم فقط، ليس ليُعمِلَه فيما يواجهه مِن أمور الحياة، تزوجتُ مِن زوجي الأول، وتفاجأتُ بشخص مريضٍ في خلَواته، مثالٍ في مظهره، إن خلَوْنا كنتُ لديه أقلَّ من جارية؛ يسُبُّ ويلعن ويضرب، بسبب أو بدون سبب، صبرت عليه متوهمةً أنه يريد أن يفرض سيطرتَه عليَّ فقط؛ لأننا في بداية

الحياة، وأنه عندما يطمئنُّ إليَّ ستتحسن معاملته، ولكن ما زاده صبري إلا فَظاظةً، ومع ذلك قبلتُ به؛ لأن الطلاقَ بالنسبة للفتاة إعدامٌ آخرُ في هذا المجتمع السقيم، ملَّ أهلي من شكواي، وملَّ لساني من نطقها، تحمَّلتُ بُخله، وسوء معاملته؛ عسىٰ اللهُ أن يرزقنا بطفل تتغيَّر معه نظرةُ زوجي لي.

مرَّ العام علىٰ هذا الحال، حتىٰ وجدتُه فجأة تحسَّن وأصبح زوجًا مثاليًّا، يأتي لي بما أطلبه، وما لا أطلبه، يودِّعُني لو خرج، ويبالغ في حُسن استقبالي إن عاد، ذُهلت!

لم أصدِّقْ، فرِحتُ فرحًا عارمًا، أصبحتُ هادئةً مطيعة، أتفانىٰ في خدمته، إن قبَّل رأسي قبَّلتُ قدَمه، إن شكا بقيتُ له بلسمًا حتىٰ تزول شكواه، تخيلتُ أن الحياةَ أزهرت وتعطَّر قلبي بأريجها، أصبحتُ أسجُدُ لله في جوف الليل شكرًا له علىٰ ما تفضَّل عليَّ به، وأوبِّخ نفسي علىٰ كل لحظة فكَّرتُ فيها أن أفارقه، أو تألمت مِن قسوته.

كان يُسامِرُني بقصص مِن الحياة أو الخيال، وكل حديثه كان لي حياةً، كنتُ أشعر أنني ملِكه، وأنه لو طلب أعضاءَ جسدي يبيعها علىٰ الناس، لاستسلمتُ غيرَ مترددة، كلما شكا

والده الثريَّ الذي يرفُضُ تمويل مشروعاته، هوَّنْتُ عليه الأمرَ، وبالغتُ في إسعاده؛ حتىٰ أحميَه مِن مجرد خاطرٍ قد يكدِّره...

وفي يومٍ أثناء جلسةٍ لنا علىٰ البحر بعد منتصف الليل نضحك ونغرِّد كعصفورين هرَبا مِن ضغوط الحياة إلىٰ الجنة، قال لي:

أريد أن أقيم مشروعًا تجاريًّا، ولولا ضِيق اليد لبدأتُ؛ الحياة صعبة، والعمل في القطاع الخاص مرهِق، والعائد لا يكفي...

قلت له:

حاوِلْ مع والدك علىٰ سبيل القرض أو المشاركة، وليس علىٰ سبيلِ احتكار مالِه، كما يشعر منك...

فقال لي:

والدي لا يقبَل، وليس لي مال عنده إلا ما أنفَقه علىٰ زواجنا، ألم تلاحظي فخامةَ كل أثاث بيتي وكثرته.. تعمدتُ ذلك؛ لأنه أقسَم ألا ينالَني في حياته مالٌ إلا مصاريف الزواج، هو يتصوَّر أنني أتعجَّل موته، وأنا لا أتعجَّل إلا أموالَه!

قلت له:

اصبرْ، وسأُعينك بالتدبير والتوفير، وتكوين رأس المال، ثم أردَفْتُ: ليتني أملِك شيئًا، أسرَع قائلًا: تملِكين!

ماذا؟ أتقصد هدية زواجنا؟ هي لا تتعدىٰ مائة جرام مِن الذهب، لا تموِّلُ مشروعًا كما تقول، وعمومًا هي لا تكثر عليك!

لمعت عيناه فرَحًا، فحمَلني وأخذ يدور بي ويضحك، وأنا أبكي فرحًا وكأني نُقِلت إلىٰ الجنة، فكنتُ لا أرىٰ الشوارعَ والبيوت كما هي، بل أراها جناتٍ هتكت الحُجب واستوطنت عيني وقلبي، حيث سكينة الفجر، جمال الشروق، تنفُّس الصبح، هدير البحر وصفاؤه...

سِرْنا لبيتنا، أقصِد للجنة، وكأننا نطير لا نسير، تملَّك حبُه شغافَ قلبي، بقِينا في سكرة حبِّنا، حتىٰ جاءني يومًا مهمومًا؛ لأنه سأل عن ثمنِ الذهب، فوجده مبلغًا زهيدًا، لا يكفي لشيء، وعاد بفكرةٍ جديدة، هي أن أثاثَ بيتنا جديد، وأن معرِضًا للأثاث يمكن أن يشتريَه منا بسعر مغرٍ جدًّا، ويعيد بيعه للمتزوِّجين الجدد، لم أفكِّرْ ولم أستشِرْ، بل كنتُ أُخْلي

أشيائي وأنا في قمة السعادة، خصَّصنا غرفةً كمخزن للمفروشات وأدوات الاستخدام الضروري، وحملوا الأثاثَ كله، وجلبوا لي سريرًا فقط، عِوَضًا عن غرفة النوم الكاملة، والسفرة والصالون وغرفة الأطفال، وكل شيء، كل شيء.. علَّقْتُ ملابسي علىٰ جدران غرفة، وملابسه علىٰ جدران الأخرىٰ، ولا أبالي... ظلَّ علىٰ حبه لي وسعادتي به، كل يوم يفاجئني بسِحر جديد، أقصِد حديثًا جديدًا، وكلماته العَذْبة تحمِل قلبي بين جَناحيها كالطير، كنت أرىٰ بيتي الخالي جنَّة.

وفي ليلة كسابقاتها قال لي:

أخافُ أن يعرِفَ أبوكِ أمر الأثاث ويشكوني، فطمأنتُه...

ولكنه أبىٰ أن يسكُتَ، إلا إذا أحضرتُ له القائمة يحتفظ بها هو؛ حتىٰ لا يشكوَه أحدٌ. (والقائمة هي وثيقة في العُرْف المِصري، تضمَن ملكيَّة المرأة للأثاث؛ لأنه بمثابةِ مهرِها).

بلا تفكيرٍ ذهبتُ لبيت أبي، وبدون استشارة أحدٍ أخذتُ له القائمة التي تضمَن ملكيَّتي للأثاث، كما هو العُرف، وأعطيتُها له، سافر بعدها ليتمَّ صفقتَه التجارية، واستودَعني بيت أبي وهو في قمة سعادتِه بمشروعه الجديد، أذهَبني لبيت

أبي وسافر، وبعد شهرينِ وبدون مقدِّمات وصلَتْني ورقةُ الطلاق.

لا أستطيعُ أن أصفَ ما حلَّ بي، لم أصدِّقْ في بادئ الأمر، ثم استسلمتُ لغيبوبةِ عقل، لا أعرفُ متىٰ بدأت ومتىٰ انتهت؟ ولا أعلم أكنتُ مِن الأحياءِ أم الأموات؟

علِمْتُ بعدها أنه خطَب مدرِّسة تعمل في الخليج، وعقد قرانه، وسافَر معها.

ظل لساني يصيح: وأنا وأنا وأنا..... ولا أنطِقُ غيرها، إن أنطقتني نيرانُ قلبي، حتىٰ خاف علَيَّ والدي مِن الجنون.

أخَذ والدي يجعل الضيافات الأسبوعية لأبيك عندنا مع باقي الرفاق، وفي يوم بعد انتهاء العدة بأشهر، عرَض والدي علىٰ أبيك أن يزوِّجَني بك... نعم بك أنت، صُدم والدك وقال: محمد! وكأن أبي ارتكب جُرمًا، وكرَّر: محمد! محمد مرتبط بزميلة له، وسيتزوَّجها، ثم إنك فرِحْتَ بابنتِك وزوجتَها مرة، أريد لابني بِكرًا!

لا داعيَ لأن أصِفَ لك توسُّلات أبي وبكاءَه بين يدي أبيك؛ فقد رأيتُهم مِن حيث لا يرونني، وبعد فترة عرَض أبوك

الزواجَ مني، ولا أعرف أكان عرضُه شفقةً علىٰ أبي أم صيدًا في الماء العكِر؟! وقد كان!

ترىٰ مَن فينا الضحية أنا أم أنتم؟!

لقد أوضحتُ لك أعذاري، ووالله إني لصادقةٌ في كل ما كتبتُ لك، ومع ذلك لديَّ يقين أن شيخوخةَ قلبِك وراءها سببٌ آخر.

وراءها حبيبةٌ امرأة، هكذا أشعر!

قرأ محمدٌ الرسالة وهو لا يعلم؛ هل ما قرأه هذا حدَث في عالم الأحياء أو أنه في عالم الجِنِّ؟!

هل هو علىٰ الأرض بين الإنس أو أن الجن أخَذوه لأسفل وعرَضوا عليه جانبًا مِن حياتهم؟!

ثم ترَك الرسالةَ ليغطَّ في نومٍ عميق(١)!

(١) جزء مقتبس من رواية للكاتبة بعنوان: (**القلوب المهاجرة**)، إصدار: الدار العالمية للنشر.

سلسلة ملح الحياة

١- صغيري الجميل

الطِّفل روحٌ جديدةٌ، تَحوم بجمالها ونقائها علىٰ الأُسرة؛ فتَملأ حياةَ الأبوين سعادةً ومرحًا، بل وتبدِّلُ تفكيرَهم وتخطيطَهم للمستقبل، ونظرتَهم للواقع والحياةِ كلِّها، وربَّما تُحِيلُها مِن رُكودٍ وروتينٍ إلىٰ حياة دافِقة بالحبِّ والحركة؛ حبُّهم فِطرةٌ، الأُنسُ بهم صِحَّة، مداعبتُهم سعادة تَسكن عروقك وذاكرتَك، كلماتهم ناقِصة الأحرف هي عَظيمةُ البلاغة في نفسك؛ ربَّما تُضحِكُك كما لم تَضْحك في عُمُرك، بل وتتحدَّث مثلَهم بأحرفٍ ناقِصة في زَهْوٍ وحبٍّ!

هذه النِّعمة التي وَهَبها اللهُ لبعض خَلْقِه، وحرَم منها بعضًا آخَرَ؛ لحِكمةٍ يَعلَمُها.. تستوجِبُ منك شُكرَ مولاك، شُكرًا بصوَرٍ متعدِّدة؛ منها حُسن تربيةِ هذا الطِّفل الذي منَحَك الله به سعادةً ورِسالةً وقِيمةً لحياتك، وامتدادًا لفِكرك وعُمُرك.

في ظِلِّ هذا الواقع المحمومِ الذي نَعيشُه الآنَ، والمُصاب بصَرَع محاربة الدِّين ممَّن يَعلم وممَّن يَجهل، تضاعفَتْ مَهمَّةُ الوالدينِ، فأصبح عليهم عبءٌ أعظمُ من ذي قَبْل، أنتما

وحدَكما الآن مسؤولان عن عقيدة طِفلِكما ونظرتِه للدِّين والخُلُقِ، وانعكاس هذا في سُلوكه، ربَّما كانت العائلةُ قديمًا والشَّارعُ والمدرسة عوامِلَ مساعدةً في التربية، أمَّا الآن فالشَّقيقانِ ربَّما لا يَجمعُهما مَنهَجٌ واحد، فانتبِهْ لكلِّ مَن سيضَع بَصمةً في عَقْل ابنِك، أنت وليُّه ومحاسَبٌ عليه.

سأُحاول في هذه السِّلسلة أن أضَع اقتراحاتٍ تُعين الوالدينِ علىٰ تَربية أولادهم تربيةً واعية تُنتج طِفلًا -علىٰ الأقلِّ- بفِطرةٍ سليمةٍ يُميِّز بها بينَ الخَبيث والطيِّب في حالة قِصَرِ عِلمِه عن ذلك، فتَهديه فِطرتُه.

وأوَّل ما سأقترحُ فِعْلَه مع الصَّغير هو أن نَملأ قلبَه بحبِّ الرسول ﷺ؛ فهو القائدُ الأوَّل ومَرجعُ كلِّ قدوة، وهو مَبعوث الرَّحمة، أسمَعك الآن تقول: كيف نملأ قلبَه بحبِّ الرسول؟! فهو صغيرٌ لا يدرِك سيرتَه!

أقول لك: هو صغير فِعلًا؛ وهذا هو المحَكُّ؛ فالصَّغير يَستقبل ويتأمَّلُ ويَقِلُّ جدَلُه وعِنادُه.

- مِن عُمْر سنتين يليقُ بالأبوينِ أن يَطلُبا مِن صغيرهما أن يَشرب بيَمينه، ثمَّ يتَّخِذا مِن هذه العادة مَدخلًا لغَرْس بُذور

حبِّ الرسول في قلْبِه، لا داعيَ لكثير كلامٍ، فقط أَتْبِع هذه العادة بعبارةٍ واحدة: لأنِّي أحبُّ رسولَ الله، وهو كان يَشربُ بيمينه.

- اطلُبْ منه أن يَنام علىٰ يمينه، ويضع كفَّه تحتَ خدِّه، وكرِّر العِبارة نفسَها، لا تأْمُرْه بالفعل لأنَّ ذلك سُنَّةٌ؛ فلَسْنا في مَوْضِع تأصيلٍ؛ بل اجعَلْه مقلِّدًا لك كمدخل لتَرْسيخ علَّةِ التقليد، وهي حبُّ الرسولِ صلواتُ ربِّي وسلامه عليه.

- نادِ ابنتك بـ (أم أبيك)، قبِّلْها بين عَينيها، مكرِّرًا نفس العِلَّة؛ لأنَّني أحبُّ رسولَ اللهِ، وهو كان يُنادي ابنتَه هكذا.

- اشترِ لأولادك هدايا بلا مُناسَبة، بسيطة جدًّا بما يناسِبك، وعندما تَشْعر بنشوة الهديَّة وفرْحَة قُربهم منك، قل لهم: فعلتُ هذا حُبًّا في رسول الله؛ لأنَّه كان يَقبَل الهديَّةَ ويحثُّ عليها.

- قِسْ علىٰ هذا كلَّ سُلوكٍ إيجابيٍّ تفعله معهم، اجعله نافذةً يُطِلُّ منها الطِّفلُ علىٰ رسول الله، وكما قال المنفلوطيُّ: (إنَّ الذي خلَق الشمسَ وأَوْدَعَها النورَ، والزُّهورَ وأَوْدَعها العِطرَ، والجسمَ وأودعه الرُّوح... قد خلَق القلبَ وأَوْدعه

الحبَّ)، فحتمًا ستَنمو بُذور التعلُّق بالرسول مِن خلال هذه المواقف، وسيتربَّىٰ بداخلهم مع كلِّ مشكلة تواجِهُهم هاتف:

- (ماذا كان يَفعل رسولُ الله في مِثل هذا؟).

فتكون خَلقْتَ لهم مرجعيَّةً؛ بل وفتحتَ أمامهم ملَكةَ القياس والاستنباط.

مِن هنا تكون قد جعَلْتَ رسول الله مَصدرًا لكلِّ خيرٍ وسعادة ومحبَّة في نفس ابنِك، قل لي بربِّك: كيف لا يحبُّه؟ ثمَّ قل لي: كيف إن أحبَّه أن يُغضبه؟ وكيف إن أغضبه ألَّا يعود ويسارع بالتوبة؟

لاحِقًا عندما يَنتقل الطِّفلُ لمرحلة السؤال والشكِّ والاستفسار، سيكون الطِّفلُ ترسَّختْ عنده ثوابتُ لا مساس بها، وستُعينه علىٰ مواجهة مشوِّهي العقيدة، كفانا اللهُ شرَّهم، كذلك ستكون خَلقْتَ له مرجعيَّةً يؤوب إليها إن اختلَطتْ عليه الأمورُ، وهي السُّنَّة.

سلسلة ملح الحياة

٢- معجم صغيري

التربيةُ فنٌّ يعتمِد على الفطرة والتجرِبة والدين والموروث الفكريِّ والعَقَديِّ والبيئيِّ لدىٰ الوالدَينِ، ربما نجد أحيانًا المشكلةَ في الوالدينِ أنفسِهما، حيث يطبِّقون سلوكياتٍ مرفوضةً مع أبنائهم لمجرَّد أنهم ورثوها من آبائهم، دون أن يمرِّروها علىٰ عقولهم وثقافتهم التي هي حتمًا متطوِّرة عن ثقافة والدَيهم، ولو بقدْرٍ، فانتبهوا جيِّدًا لقول سيدنا رسول الله ﷺ: «**إنما بعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق**»، فكلُّ موروثٍ يخالف مكارمَ الأخلاق، يجب ألَّا تجعليه من ميراث ابنك، كذلك نفَّر ﷺ من الفُحش في القول والبذاءة، فقال: «**ليس المؤمن بالطعّان، ولا اللعّان، ولا الفاحش البذيء**» أو كما قال ﷺ.

أثبت كثيرٌ من الدراسات أن معجم الطفل يتكوَّن منذ نُمُوِّ سَمْعِه وهو جنينٌ، واستدلُّوا علىٰ ذلك بأن الطفل يَنتبِهُ بسرعة للمادَّة المسموعةِ التي كانت تَحرِص عليها الأمُّ أثناء الحمل؛ كصوت الأذان أو القرآن، أو غيره، أكثر مما ينتبه لغيرها.

سنبدأُ في تكوينِ معجم الطفل من مرحلة الهَدْهَدة، قبل اكتمالِ جهاز النطق عنه، عليكِ أن تنتقي مجموعةً من الأدعية السهلة الموزونة، وهَدْهِدِي بها طفلك قبل نومه وعند بكائه، سيستمرُّ هذا لعمر الثالثة تقريبًا، سيحفظها الطفلُ وستروق له، وتُحدِث راحةً في نفسه كلَّما أدرك معناها تدريجيًّا.

كنت أُهَدْهِدُ أولادي الأربعةَ علىٰ الشهادة بإلقاء مختلِف، وبعض الأشعار الخفيفة، ثم سمعت من جارتي دعاءً تنغِّمُه هي بصوتها باسم الطفل نفسِه:

(سلِّم فلان يا الله، خلّه لأمه يا الله، بارك عمره يا الله، يسِّر أمره يا الله...)، وهي امرأة من بَدْوِ الجزيرة، عاشرتُها أكثر من عشرين عامًا عن كثب، واللهِ ما دَعَت علىٰ أحد من أولادها مرَّةً؛ بل في أشد لحظات غيظها تدعو له! وفي أوقات تنـدُّرهم وهم كبارٌ يذكرونها بما يحفظون من هذه المواقف والكلمات!

تكرِّر بعضُ الأمَّهات أنها ليست المتحكِّمةَ في قاموس ابنها؛ لأنه يختلط بالكبار من عائلته (الأعمام والأخوال وأولادهم...) وأنها تخجل من الاعتراض علىٰ ألفاظهم،

وطفلُها يكتسب منهم ما لا يرضيها، وأنها لا تستطيعُ حصارَ الجميع، والتحكُّم في ألفاظهم وسلوكهم، وهو فعلًا صعبٌ، لكن العلاج متاح.

أيًّا كانت البيئة المحيطة، فاجعلي بيتك مُناخًا مختلفًا، وسيدرك الطفل مع الوقت أن لكل مقام مقالًا، كوني يقظة جدًّا لكل مفردة تسمعينها أنت، ثم في خَلْوَتك بابنك بَيِّنِي له أن الكلمة هذه لا تليق بك أنت، وعزِّزي لديه الثقة بالنفس والطموح والتميُّز؛ كأن تقولي له:

أريدك إنسانًا مميزًا، أنت أعظم في عيني من أن تقول هذه الألفاظ، هم يُخطئون عند قولها ولا تخطئ مثلهم، هذه الألفاظ ليس مكانها البيت، أنا لن أجلس مع فلان كثيرًا؛ لأن ألفاظه لا تعجبني وفيها بذاءة لا تليق بالمسلم، وإن صرت مثله سيتجنَّبك الناس أيضًا.

ثم اغتنمي الفرصة واغرسي فيه الحياء من الله ومن الملائكة، قولي له:

إن الله يسمعني ويراني، وأنا أحبه؛ لأنه هو الذي أعطاني كل شيء أملكه، وأخجل أن يسمع مني أو يرىٰ ما يكره،

وَضِّحِي له أن الملائكة تكتب كل ما نقوله، ولا أحب أن يكتبوا عني لفظًا بذيئًا، طبعًا انتبهي سيردُّ عليك الطفل الذكيُّ قائلًا: لكنك قلتِ كذا وكذا سابقًا.. بادريه بأنك أخطأتِ واستغفرتِ وتُدَرِّبين نفسَك علىٰ الالتزام، وأنه لا مانع من الخطأ، ولكن التراجع عنه هو صفة العقلاء.

سيدخلُ معكِ في جدل حول المقرَّبين له، ولماذا استمرُّوا علىٰ هذا الخطأ؟ وما المشكلة أن نكون مثلهم؟ فنحن نحبُّهم وهم ناجحون... وغير ذلك، اجعلي إجابتَك أكثرَ ذكاءً من الطفل، وَضِّحِي بما يناسب عمره أن القضية إرضاء الله، وليست فقط اعتراضًا علىٰ الأشخاص، وأن الجنة درجات، وكلَّما كنت أنقىٰ، كنت أعلىٰ، ولا مانعَ من الحوافز المادية كالهدايا، ثم وضع ندٍّ صالحٍ في مقابل ذلك الندِّ، كأن تقولي له:

انظر لفلان، هو محبوب أكثر من هذا؛ لأنه أكثر تهذيبًا وانتقاء لألفاظه.

المهم أن تكون المقارنة صادقة وناجحة لأنك ستنسين وسيظلُّ الطفل متذكِّرًا، ويقارن بنفسه للتحقُّق مما قيل له ثم

يراوح بين الصواب والخطأ حتىٰ يستقرَّ علىٰ الصواب إن شاء الله، فالعائلة تجربة الطفل الأولىٰ في مواجهة المجتمع الأكبر الذي سيواجهه لاحقًا، يختلط معهم لا شك، ولكن بمساعدتك لا يمتص كل ما يعرض له منهم، حتىٰ لا يمتص كل ما سيراه لاحقًا من قبح في المجتمع، حفظهم الله جميعًا.

أعلم أن الأمر صعبٌ، ودائمًا ما أشبِّه التربية بالنحت علىٰ صخور ملساءَ بأظفارٍ ضعيفة، لكن حسبنا أننا نؤدِّي ما كلِّفنا به أمام الله باجتهاد وإخلاص واحتساب وثقة في كرم الله وحِكمته.

المجتمع الآن في مرحلة ضعف قيميٍّ، وأكثر ما نحتاجه الآن تحصين نفوسهم من الملوِّثات -جعلهم الله قرَّة عين لكم- فلا بد للوالدين من مراجعة أنفسهم في سلوكهم مع أبنائهم، فيحرصون علىٰ عملية غربلة يتخلَّصون بعدها مما لا يَصِحُّ فعله مع الأبناء، حتىٰ لو كان من موروثاتنا، فكما أعددتِ نفسك للجامعة والزواج، عليك أن تعدِّي نفسك عقلًا وروحًا للأمومة، وما أسهلَ وأيسرَ اكتسابَ الخبرات الآن مع وجود وسائل التواصل! وأهمُّها وأسرعها (اليوتيوب).

مما يحضرُني في هذا الصدد:

أن أمًّا تُكَرِّرُ السِّبابَ والدعاءَ كما كانت أمُّها تفعله معها، وبالألفاظ نفسها، والمضحك أنها قد لا تعرف معنىٰ الكلمة التي تستخدمها، ولم تفكِّر فيه سابقًا، فظلّت هذه الأم تَسُبُّ ابنَها بكلمة (جاءك عارضٌ) وهي لا تعرف معناها، ولم تفكِّر فيه، حتىٰ ذهب الطفل للمدرسة، واستخدم المفردة نفسها عند سَبِّهِ أصحابَه..

استوقفتنا الكلمة من طفلٍ، وبدأنا نفسِّرُها ونبحثُ عنها، ونرىٰ استخدامها في القرآن واللغة ونتضاحك كفريق عمل، حتىٰ حان لقاءٌ بالأمِّ فحاولنا الاستفسار منها، فقالت:

لا أعلم معناها، كررتُها كما كانت أمي تقولها فقط!

ولو عجَّل الله لنا الشرَّ استعجالنا بالخير لقطعنا ألسنتنا ندمًا! ماذا لو علمت هذه الأمُّ أن العارض كان عذابًا أليمًا مهلِكًا؛ قال تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤].

وقد أوضحَ كثيرٌ من الأحاديث قيمةَ الكلمة وأثرَها، فربما تهوي بصاحبها في النار، وهو لم يكن يَعِيها ولا يعطيها بالًا!

واعلموا أن العادةَ ألزمُ من الطبع!

فعوِّد لسانك شريفَ الكلام، تكنْ أرضيتَ عقلَكَ وربَّك، وأورثت ولدَك ما لا تأثم عليه.

وإن أردت أن ترىٰ نفسك، وكيفية انفعالك مع أولادك، فانظر لابنك عند غضبِه، خاصةً في عمر ما دونَ المدرسة، تجده يكرِّر ألفاظَك وحركاتِك وانفعالاتِك نفسَها وبدقَّة، عندها تَأَنَّ وانظرْ:

هل أنت علىٰ الطريق الصحيح أو لا؟! فإن انفعاله تقييم لسلوكك معه.

نسأل اللهَ أن يحفظَ أبناءَ المسلمين.. ويستعملهم ولا يستبدلهم.

سلسلة ملح الحياة

٣ - صناعة خيال صغيري

- إني أكره ربنا!

كلمةٌ مفزعةٌ واللهِ، خفَقَ لها قلبي عند سماعها، واستحوذ عليَّ الصمتُ والعجبُ، بل خِفتُ من الاسترسال في الحديث خشيةَ أن نُصعق بها!

ولكنني تابعتُ حوارهم في صمت، فعلِمت سرَّ هذه الكارثة التي ترسَّخت في الذهن منذ الصغر، ثم أخذت جهدًا جهيدًا لإحلال الحبِّ في نفس قائلها مكانَ الكُره..

سرُّ هذه الكلمة: أن الأم كانت تعمد للترهيب فقط دون الترغيب، وكلما أتىٰ صغيرُها بسلوك لا يعجبها قالت:

لا تفعل؛ لأن ربَّنا سيُحرقك بالنار!

أيُّ تألهٍ علىٰ الله هذا؟!

لا أعلم!

فتربَّىٰ في خيال الطفل ووجدانه صورةٌ قاسية لله -جلَّ وتعالىٰ عما يصفون-.

نجد الأم هنا صنَعت خيالًا مشوهًا لدىٰ الطفل، فكلما ذُكر الله سبحانه استدعىٰ ذهنُه النارَ، وبقي الأمرانِ متلازمينِ حتىٰ تخلَّص من رقِّ هذا الخيال الفاسد، وعَلِم أن رحمتَه سبقتْ عذابَه، وأن رحمته وَسِعَتْ كلَّ شيء.

أنا شخصيًّا بقيتُ فترةً طويلةً أخافُ بشدة من السُّحبِ الضخمة حين الرعد، وربطتُ بينها وبين ما سمعتُه من تفسيرٍ لسبب الرعد وقتَها، حيث كانت جدتي تقول لنا عن الرعد:

(إنه صُراخ أهل النار)..

فأنظرُ للسماء لأبحثَ عن دليل ملموس علىٰ هذا الصوت، فلا أجدُ غيرَ السحب، فأتخيل كبيرَها جُثثَهم، وصغيرَها لحومَهم تتساقط!

فالطفلُ إدراكه محدود، ويؤمِن بالمحسوسات أكثرَ من المعنويات، فاحرصي علىٰ صنع الخيال الإيجابيِّ الذي ييسر عليه فهم الأمور لاحقًا علىٰ أحقِّيَّتِها، وتجنَّبي صنع الخيال السلبي لديه؛ لأنه يُولِّدُ عنفًا لا إراديًّا في سلوكه ليواجِه به الخوفَ الذي يتولد بداخله، واربطي دومًا بين العنف غير المبرَّر لدىٰ الطفلِ وبين خيالِه كيف تكوَّن وما مصدره!

اسردي قصصًا له بنفسك، دون صور ولا مرئيات؛ حتىٰ ينمو خياله، ويصنع صورًا جديدة تقرِّب إليه المعانيَ والمشاعر لاحقًا، وغَيِّرِي مجرَىٰ القصة بحسب الهدف المراد منها، واهتمِّي بالموازنة دومًا بين مشاعر الخوف ومشاعر الرضا والسعادة، واجعلي للأخيرة النصيبَ الأكبر؛ لأن المرئياتِ وحدَها هي خيالُ المُخرِج والكاتب، فتحصر خيال الطفل وتقلِّل نموَّه.

اربطيه بالطبيعة قدر المستطاع كما خلَقها الله، لا كما رسمها مهندس أفلام الكرتون، وإن تعثَّر ذلك في الواقع، فليكن من خلال أفلام الغابات والصحاري وغيرها؛ حتىٰ يرسمَ خياله ما يستمع إليه منك كما خلقه الله، وأثناء السرد اهتمِّي بالتفاصيل كالأصوات مثلًا، والبراعم والأوراق المتساقطة، والمطر، ولون الحيوان، والرمال والجبال...!

واتَّخذِي ذلك كلَّه مدخلًا لترسيخ العقيدة، ففي كل قصة اجعلي لها عنوانًا يرمي لهدفها؛ مثلًا (حبات الرمال أو قطرات المطر...)؛ لأن الله يعلم كلَّ شيء حتىٰ عدد حبات الرمال وقطرات المطر، تربطين له بين الحبَّة التي سقَطت في غابة أو صحراء ولم ينتبه لها أحدٌ؛ كيف أرسل الله لها قطرةً أنبتتها،

وورقة تحلَّلت وسمدت تربتها، ثم كيف جاء الكائن الحيُّ المتعب فوجدها نضجَتْ فأكَلَها؛ لأنها رزقُه المضروب له قبل ميلاده... وهكذا، حديثُك محدَّدٌ بغايات ووسائلَ.

واحرصِي علىٰ المَرح..

المرح وحدَه ما سيجعل الطفلَ يشتاق للقصة مرات ومرات.

واسمحِي بالأسئلة والمقاطعات، ولا مانعَ من الاستعانة بورقةٍ وقلم لتسجيل ما سيقوله طفلُك، ومراجعته، ووضع استفساراته في محاورَ قصصية لاحقة، واجعلي لجلسة القصص هذه هَيْبَةً وحضورًا؛ كأنْ تربطيها بحلوىٰ معيَّنة؛ تمييزًا لها وترغيبًا فيها، ثم اجعلي الجلسة نفسها مكافأة لهم بعد سلوك طيِّب قاموا به، وهكذا.

يَحسُن كذلك أن تجعلي لخياله قدوةً منذ الصغر، كما ستجعلين لعقله قدوة لاحقًا في مرحلة المراهقة؛ لأن في الصغر الخيالَ خصبٌ لم تتراكم فيه الصور بعد، فمثلًا كان مؤدِّبُ محمدٍ الفاتح يقف به علىٰ الشاطئ؛ ليرىٰ أضواء القُسطنطينية من بعيد، ثم يقول له:

لقد بشَّر رسولُنا بأنَّ فاتحَ هذه المدينة اسمه محمد علىٰ اسمِك، وجيشه سيكون خيرَ الجيوشِ في زمانه، وإني لأرجو أن تكون أنت هذا الفاتحَ!

فَنَمَا في خيالِ محمدٍ الفاتح ﷺ أنه هو ذاك المقصود بالبشارة، برع في الفروسية، وحفِظ القرآن والحديث في زمن قياسي، وترك له والده السلطان مراد زعامةَ الدولة وهو في الرابعة عشرة من عمره، وحياته معروفة!

ويجدر بالوالدين منذ البداية عند اختيار اسمِ مولودهما أن يكونَ الاسمُ نفسه حاملًا معنىٰ مرجوًّا أو قدوةً، ومع بداية إدراكِه للمعاني والسرد يقصَّانِ عليه قصةَ اسمِه وسبب اختياره، بما يربِّي لديه الاعتزازَ بنفسه، الذي سيولِّد فيه القدرةَ لاحقًا علىٰ فعل الأشياء قدوةً بشبيهه، ويغرس في نفسه هدفًا يمكن تحقيقُه أو تطويره.

اعلما أنكما وُكِّلْتُما من الله بالنقش في هذا العقل، والرسم علىٰ جدران هذه النفس، فلا تخُطَّا إلا ما يسرُّكما رؤيةُ آثاره في الدنيا والآخرة!

وليكن شعاركما معه كما قال هارون الرشيد لمؤدِّب ابنه:

ولا تَمُرَّنَّ بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيده إياها، من غير أن تحزنَه فتُمِيتَ ذهنَه، ولا تُمْعِنْ في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفَه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة.

بالطبع لا يخفىٰ عليكم أنَّ اللينَ والغلظةَ لا بد من أن يتناسبا مع المرحلة العمرية، وليس شرطًا أن تكون الغلظة عقابًا بدنيًّا، فهو آخِرُ ما يمكن استخدامه، وفيما بعد العاشرة، ليس قبلها بأي حال من الأحوال كما نبَّه لذلك سيدنا رسولُ الله ﷺ: «**علِّموهم الصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر**»، أو كما قال ﷺ.

ملاحظة:

ردًّا علىٰ بعض الأمهات اللائي شَكَوْنَ من أنهنَّ لا يَجدْن وقتًا لأولادهن لتنفيذ هذا الجهد الذهنيِّ والبدنيِّ، أقول:

الْزَمِي هذا المنهجَ (أنت أم ومربية، لا خادمة)، حاولي التوفيق، وإن تعارَض، فعملُ البيت يؤجَّل منه غيرُ الضروري،

وتُقدَّم أمور التربية عليه، ثم خَصِّصِي يومًا كاملًا لجبر كلِّ المؤجَّل، فأنْ تُهملي أمورَ التربية يومًا لا بأس، أما أن تُهملي العقلَ لأجل البطنِ، فليس في ذلك عقلٌ!

والأمر لا يحتاج منك أكثر من الإصرار وتنظيم الوقت لا غير، وتحديد مهام الأبوين في عملية التربية، فالقادر يتصدر، هو غرسكم؛ ابذُلا فيه جهدَكما بشكل موجه صحيح، تَجِدا ثمرةً ناضجة إن شاء الله!

حفظ الله أبناء المسلمين.. وجعلهم ممن يستعملهم ولا يستبدلهم.

سلسلة ملح الحياة

٤- اللّه يسمعني، اللّه يراني

بعدما تحدَّثنا عن معجم الطفل وخيالِه فيما سبق، سنتحدث عن التعلُّم في المرحلة الابتدائية وما قبلها، ففي هذه المرحلة يكون الذهنُ والقلب صافيينِ، وأنت مَن تخُطُّ بيمينك أُسسَ الحياة في نفس صغيرك؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ لذلك فإن هذه المرحلة مهمة جدًّا في موروث الطفل القِيَمي، ولأن الطفل في هذه المرحلة ربما لا يستوعب المصطلحاتِ العقَديةَ والحياتية بوعيٍ ودقّة، فسيكون التركيز علىٰ التصوُّر البصريِّ لديه، ثم الحوار.

عندما يتعلم القراءةَ في سنواته الأولىٰ، ستكون لديه رغبةٌ في قراءة كلِّ لوحة أو لافتة يراها، فعلىٰ الوالدين أن يُحفِّزا هذه الرغبةَ عنده، وفي أثناء التنقل نُحاول أن نجعله يقرأ اللافتات، وهذا فقط مجرد مدخل لإثارته، ثم أبدأ معه بقراءة عناوين الكتبِ الموجودة بالبيت -سواء دراسية أو غيرها- ومع نمو رغبته في اكتشاف كلِّ حرف مكتوب، أبدأ أنا كأُمٍّ بعمل بطاقات متعددة بخطٍّ كبير واضح، ويا حبَّذا الملوَّنة، ولو لُوِّنَ كلُّ حرفٍ بلونٍ مختلف، لكان أنفع؛ لأنه سيَجذب انتباه

الطفل، ثم أختار مكانًا بارزًا في البيت، وأَلصَق هذه البطاقة، ويجب أن تكون بحجمٍ مناسب، ولا أضع أكثر من بطاقة، ولا أَلفِتُ نظر الطفل إليها، فقط أتحقَّق أنه رآها ويَمر عليها، فهذه البطاقات ستَحِلُّ مَحَلَّ القَصص التي كنا نَقُصُّها قبل تعلُّم القراءة والكتابة، وبعد مرور أسبوع مثلًا علىٰ وضع البطاقة، نطلب من الطفل أن يساعدَنا في تغييرها، ومن هنا سيَنتبه الطفل للبطاقة الأولىٰ، وسيَسأل عن معناها، وسيحاول قراءتها، وإذ ذاك تكون الأم مستعدةً لهذه اللحظة، وبمجرد قراءتها تُظهر الأم انبهارَها بفعله، وتَحنو عليه، وتُكافِئه بشيءٍ يحبه، ثم تسأله: هل فهمتَ معناها؟ ثم تَشرح له معناها، وتُبدي فرحةً بتفاعُل ابنها معها، ويأخذ الحوارُ مع الطفل حول البطاقة ومعناها ثُلُث ساعة، أو نصف ساعة علىٰ الأكثر، ثم تضع البطاقة الجديدة، وهكذا.

ومع كل جلسة حول مفهوم البطاقة، تكون الأم قد أعدَّتْ مادة للنقاش، تستمدُّها من سلوك الطفل نفسِه وأخطائه وتجاوزاته خلال الفترة التي تَفصِل بين الجلستين، ولا تُوجِّهه توجيهًا مباشرًا، بل تصنع خيوطًا لعقله من خلال حديثها؛ ليَربط هو بين سلوكه وبين الحوار.

نأتي إلىٰ السؤال المهم: ماذا سنكتُبُ في هذه البطاقات؟

بداءةً ستكون المادة المكتوبة متعلقةً بالبدهيات الواجبِ علىٰ الطفل معرفتُها في الدين والحياة، ثم بعد ذلك تكون مُستمَدَّةً من سلوك الطفل نفسه، أتذكَّر أول بطاقة وضعتُها لأولادي، كانت:

(الله يسمعني، الله يراني)، وبالطبع طرَحوا عليَّ أسئلةً كثيرة بعد فَهْم معناها، بل بدأ بعضهم يدخل غرفة ويُغلق علىٰ نفسه، ثم يخرج ويسأل:

هل كان الله -جل وعلا- يراه وهو بالغرفة؟

وبدأ الحوار الذي لم يَنته لمدة أشهر طويلة، حتىٰ وصل إلىٰ مفهومه أنه ولو كان في حفرة تحت الأرض مُظلمةٍ، فإن الله يراه، وأظنُّ أن هذا السؤال أول دروس العقيدة المهمة.

مما يَحضُرني حول هذه البطاقة تحديدًا: أن صغيري ذهب إلىٰ المسجد يوم الجمعة، وعاد وحده وجلس صامتًا يتأمَّل علىٰ غير عادته، فسألته: هل أساء لك أحد؟

فقال: لا، إذًا ما الأمر؟

قال: وجدت مِسمارًا علىٰ الأرض، فأمسكتُ به، وذهبت إلىٰ بيت أحد الجيران؛ لأُفرغ هواءَ إطار سيارته، التَفَتُّ فلم أجد أحدًا حولي -ذلك أن درجة الحرارة تصل إلىٰ الخمسين أحيانًا- ذهبتُ إلىٰ زاوية خلفية؛ حتىٰ لا يراني أحد، ثم تذكَّرت أن الله يراني، فتركتُ السيارة وعدتُ إلىٰ البيت.

من هذا الموقف أخذتُ فكرةَ أكثر من بطاقة قادمة عن الصدق والظلم والعتاب؛ حيث إن رغبته في إفراغ هواء إطار السيارة، كانت ناتجة عن ظلم ابن ذلك الجار له في موقفٍ ما!

والأفضل أن تكون غالب البطاقات مُستمَدَّةً من أحاديث رسول الله ﷺ وليس بالضرورة أن أضع النص كاملًا، بل مَغزاه يكفي في كلمتين أو ثلاثة، لا يزيد.

وكلما وجدتِ في مناهجه ما يَصلُح أن يكون مضمونَ بطاقةٍ، بيِّني له أن هذه العبارة مكتملة المعنىٰ، إنها تَحمل معنًىٰ جميلًا، أو تُعلِّمنا قِيَمًا نافعة، وسارعي بكتابتها في بطاقة، ثم بعد ذلك اطْلُبي من الطفل نفسِه انتقاءَ العبارات التي يراها مُعبِّرةً جميلة مما يَدرُس، عندئذٍ سيتدرَّب جيدًا علىٰ التذوُّق والقراءة بوعي؛ ليَلتقط عبارةً مناسبة، فإن وُفِّق لذلك، فاكتُبي

العبارة وذيِّليها باسمه؛ فذلك من أهم دوافع الانتقاء لديه، واحتراف الاجتزاء المناسب، ومع تقدُّم وسائل الاتصال، يُمكن أن يَنشرها هو أو أنتِ، مُشيرةً إلىٰ أن هذا من انتقائه، ثم من تعبيره، وهكذا.

ربما يتحوَّل الأمر عنده من اكتساب قيمة وسلوك إلىٰ مجرَّد احتراف، ففي هذه الحالة يكون عتابك له مُقترنًا بمضمون البطاقة، فمثلًا:

إن اقترَف الكذب، ذكِّريه ببطاقة: (**الصدق منجاة**).

وإن وقَع في السرقة أو الإتلاف، ذكِّريه ببطاقة: (**الله يسمعني، الله يراني**).

وإن وقع في تأخير الصلاة، ذكِّريه ببطاقة: (**إلا المُصلين**).

فقط انتبهي ألا تُحوِّلي هذه البطاقات إلىٰ سُور يُحاصره، بل كوني حنونًا أثناء توجيهك، فإن اللينَ يَصنع في النفوس ما لا تَصنعه السيوف.

واعلمي أن نجاح شخصية طفلك يتناسب طرديًّا مع نسبة الحب والحرية التي تَمنحينها له، فاجعلي قُوتَهم الحنان، يفوزوا وتفوزي، وكما أقول دومًا:

بين حاء وحاء تنمو العبقرية -(**الحب والحرية**)-.

ثم كوني في حياته المحورَ الذي يدور حوله، يَجتهد منتظرًا تشجيعك، يتقدَّم لأنه يريد فرحَك، يُنجز وعينُه عليك تَرقُب رضاك، وتَمنحيه الأمان بحِضنك ورضاك، هنا فقط كوني قريرةَ العين!

بُورك لكم في أولادكم، وجعلهم مَوردَ بِرٍّ لكم في حياتكم، وصدقةً جارية لكم بعد مَماتكم بصلاحهم.

سلسلة ملح الحياة

٥- صناعة الذكرى

كلٌّ منَّا عندما تمرُّ عليه لحظة ما يشاهد فيها موقفًا أو يشتمُّ فيها رائحة، أو يؤدِّي فيها نسكًا... تقفز به الذاكرةُ لمرحلة محدَّدة من عمره، فنرىٰ وجهَه قد تغيَّر؛ إمَّا لطلاقة وبِشر، وكأنَّ ماء الطُّفولة قد سرىٰ في وجهه، وإمَّا كمدًا وحزنًا، وكأنَّه يُساق لقبره، وقد نرىٰ وجهًا لا نعرف صاحبَه، لكنَّه يثير فينا حنينًا وشوقًا يصل بنا أحيانًا لتدفُّق الدَّمع لهفة وفرحة؛ وذلك لأنَّه أثار في قلوبنا ذكرىٰ نفس فارقناها وكانت فَيء روحنا وجنَّة أيامنا.. كل ذلك مرده الذِّكرىٰ التي تُثار في نفوسنا نتيجة لهذا الحدَث الآني، والسؤال هنا كيف أصنع لطفلي ذكرىٰ تَنثر السعادةَ في أرجاء روحه عندما يَكبر ويواجه كبَد الحياة وعبوسها؟

- جنَّبكم الله وصغارَكم شرَّها ورزقكم خيرها.

في الحقيقة أثار هذا الجانبَ في نفسي سؤالٌ عابر لابنتي بعد أن آنستُ منها رشدًا وهو:

- هل تحرصين علىٰ الدُّعاء لنا؟

فقالت بلهفة تنبئك عن صِدق:

- في كلِّ صلاة واللهِ أفعل.

أثار ردُّها في ذهني سؤالًا:

- ما أحبُّ موقفٍ تتذكرينه لنا (الوالدين) وأنت صغيرة؟

قالت:

- عندما كنَّا نلعب حولكم وأنتم تقشِّرون لنا (الحب) وتضعونه في كفكم ونحن نركض ونطوف لنأكله أثناء اللعب، عندما كبرتُ علمتُ أنها عمليَّة شاقَّة جدًّا وأنا لا أطيق فعلها، فكيف صبرتم علينا وفعلتم ذلك مرات كثيرة وبكميات؟!

سألتُها عن موقف آخر، قالت:

- كل يوم أرىٰ أبي يَفتح زجاجةَ الماء والعصير ثمَّ يغلقها مرَّةً أخرىٰ قبلَ أن يضعها في حقيبة مدرستي فأتعجَّب، ولكنِّي لا أصل إلىٰ إجابة، فلمَّا سألته قال: حتىٰ لا تؤلِمكم أثناء فَتحها أو تعصىٰ علىٰ أيديكم الغضة!

أردفت أختها:

- أمَّا أنا، فلا أشعر بالعيد إلَّا عندما أشتم رائحةَ الوسادة

التي تعطِّرينها لنا بنفس العِطر كلَّ عيد، وننام نحلم بالشروق والخروج للصلاة والعودة مِن طريق آخر، ونتذكَّر ما كان العيد الماضي مِن طُرف، وكلٌّ منَّا يضيف ما أعدَّه من ذكريات مضحكة، تتجدَّد معها النفس، ونعيش لحظات كأنَّها العمر نشعر فيها بفرحة العيد...

هذه تصرُّفات عفويَّة منَّا كوالدين لم نتعمَّدها، ولكنها رسخت في نفس ابنَتي، فأنبتتْ بداخلها شعورَ الامتنان والحبِّ والاعتراف بالجميل، وعلَّمتْني أنا كأمٍّ أنَّه لا يضيع خير عند الله ﷻ، فكلُّ خيرٍ سيوفَّىٰ إليك حتىٰ وإن فعلته بدافع الفِطرة دون قصدٍ منك، كما أنَّها قفزت بخيالي لتعامل رسولنا الكريم ﷺ مع سبطيه (الحسن والحسين) سلام الله عليهم جميعًا.

كيف كان يطيل السجودَ وهما علىٰ ظهره حرصًا عليهما؟

تُرىٰ كيف كان شعورهما عندما يتذكَّران له مثل هذا الموقف؟

أم كيف كان شعورهما وهما يتذكَّران نزوله مِن علىٰ المنبر وحمله لهما عندما دخلا عليه وهو يخطب يرتديان

قميصين أحمرين ويتعثَّران في سيرهما؟

وكذا حفيدته من ابنته السيدة زينب (أمامة بنت أبي العاص) كيف كان شعورها عندما تتذكر أنه كان يحملها علىٰ عاتقه رحمة بها وهو يصلي فإذا ركع وضعها وإن قام حملها حتىٰ انتهىٰ من صلاته صلوات ربي وسلامه عليه وعلىٰ أهل بيته الكرام.

مِن هنا وغير ذلك مِن المواقف الكثيرة نعلم أنَّ الرَّحمةَ والرِّفق أصلٌ في التعامل مع الطفل، وهي مَن تجعل بذور البرِّ والاتزان تَنمو وتثمر في نفسه، أمَّا ما نراه أحيانًا مِن بعض الآباء والأمَّهات مِن قسوة تصِل إلىٰ حدِّ التعذيب؛ فهذا واللهِ مِن العجب! ولا يتعدَّىٰ أن يكون نذيرَ شؤم علىٰ هذين الأبوين في المستقبل، فأين هما مِن قول رسول الله ﷺ: «**أَكْرِموا أَوْلادَكم وَأَحْسِنُوا آدابَهم**».

وقوله ترغيبًا في الإحسان للأولاد: «**لَأَنْ يُؤَدِّبَ الرجُلُ وَلَدَه خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ**».

والتأديب هنا هو التعليم والتهذيب بحبٍّ ورحمة، كما كان يفعل سيِّد الخلق.

عندما تُثار مِثل هذه الأمور مع الوالدين القاسيين يَعتذران بضغوط الحياة وشقاوةِ الطِّفل نفسه ممَّا يزعجهما ويُحيل بينهما وبين رحمته! وهذه أعذار لا أصلَ لها؛ فإن كنتم تَحملون هَمَّ بطونكم فإنَّ رسول الله كان يَحمل هَمَّ بِناء أمَّة محارَبَة مِن كلِّ اتجاه، ولم يرغمه هذا علىٰ العبوس والتجهُّم والضرب كما تفعلان!

أمَّا كلمة (شقاوة الطفل) فهذا التعبير يثير حفيظتي -كفىٰ الله أولادَنا شقاءَ الدنيا والآخرة- فطبيعة الطِّفل الحركة؛ لتنموَ عضلاته وتكثر مَعارفه، ويربط بين الأشياء والأحداث وغير ذلك، فمَن قال لكم: إنَّه يجب علينا تعبئته في زجاجة صامتًا كي يَحظىٰ بالعطف والودِّ؟! أو اعتباره دُمية نحرِّكها متىٰ اشتهينا ترفيهًا وأنسًا، لا تعليمًا ومسؤوليَّة.

-يا رعاكم الله-، علينا مراجعة مفاهيمنا والاقتداء بنبيِّنا وصحابتِه الأكرمين حتىٰ نصنعَ رجالًا هم بحقٍّ رجال لا جثثًا ميِّتة القلب؛ تَنمو لتأكل ثمَّ تذهب بلا أثر!

أحسِنوا إليهم لتكونوا مبعثَ سرور في نفوسهم كلَّما طافت ذكراكم بخيالهم، اجعلوهم مصدرَ حسنات لكم في

مَحياكم ومماتكم بحُسن الخُلُق معهم، لا تخسر قلبَ ولدك لتعثره في أمرٍ ما؛ فرزقه مَكفول وما أنت إلَّا مرشد فقط ليجد هو السبب، طوبىٰ لِمن جعل قلوبَ أبنائه مِن حظه ورزقه وحَظي بصالح دعائهم حيًّا وميتًا، ولن يكون هذا سهلًا بالطبع علىٰ الآباء؛ لأنَّه لا بدَّ أن يسير بميزان ذهب دقيق؛ فلا ميوعة مفسدة ولا قسوة مدمِّرة.

فلْيثابروا؛ فهي رسالتهم التي اختاروها وكلِّفوا بها، وليبذل كلٌّ منَّا السببَ، والتوفيق والرجاء مِن الوهاب -جلَّ وعلا-، وخير لك أن تتَّخذهم هدفًا متعبًا مِن أن تعيش علىٰ هامِش الحياة بلا هدف، وحسبنا أننا نتعامل مع الله الكريم الذي يتَّخذ ميزانًا بالذرَّة ولا يضيع عنده شيء.

بارك الله أولادَ هذه الأمَّة، وأحياهم وأماتهم علىٰ التوحيد.

سلسلة ملح الحياة

٦- (بين حاء وحاء تنمو العبقرية)

قرأت كتاب «**السيرة الذاتية**» للعبقري المصري مصطفىٰ محمود رحمه الله، ثم تفحصت ما سرده عن نفسه، لأفهم عوامل نموه فكريًّا حتىٰ وصل إلىٰ حدّ العبقرية التي عاهدناها فيه، فوجدت عاملين مهمين جدا ألا وهما: (**الحنو والحرية**).

فقد وُلِد ابن سبعة أشهر مع أخ له توأم، وشاء الله أن يموت أخوه التوأم بعد أسبوع، ويبقىٰ هو حتىٰ عمر الثمانية والثمانين، وكان قد ولد برئة واحدة! فخلّف ذلك حنواً شديدا عليه في قلب أبويه، بل وإخوته، حيث هو أصغرهم جميعًا أشقاء وغير أشقاء يصف طبيعة أبويه باللطف الشديد من والده، والحزم العاقل من والدته، هذا مع الجميع، أما عند مصطفىٰ فكلاهما كتلة حنان مراعاة لظروفه الصحية، درس الأمومة في جميع الحيوانات، والحشرات ليبحث عن معنىٰ الأمومة النادر الذي قدمته له أمه فسقىٰ فطرته وألهب عقله، إذ منحته الأمان المطلق دون مقابل يقول:

(وأنا شاب يافع، في كل مرة أسافر للقاهرة؛ لأنشر

مقالاتي، أعود عند بداية الظلام فأجد أمي تقف وراء عمود عند محطة القطار ما إن تلمحني نزلت من القطار إلا وتسبقني للبيت فأتبعُها لأجدها بملابس البيت تُعد لي الطعام دون أن تذكر انتظارها لي علىٰ المحطة ولا خوفها علي) وكأنها تقول له افعل ما تحب ودع قلبي يحرسك كما يحب دون منٍّ عليك أو أذىٰ، هي فطرتي لا ذنبك ..!

علينا هنا مقارنة موقف الأم بغيرها اللائي يعزفن علىٰ وتر الضمير والتضحية فيثبطون عزيمة أبنائهن وتضخم أفعالها لجذب اهتمام ابنها وهي لا تعلم أنها تدفن قدراته!

أما الأب فقد كان يرعاه بدفعه للتجربة، فلم يترك الخمس صلوات في المسجد مع أبيه فترة الطفولة كاملة، ولم يتخلف عن مجلس حفظ القرآن بشغف، ثم السنة النبوية، وبملاحظة الأب لنبوغ ابنه كأنه فطن أن أي قيد يفرضه عليه سيحدّ من جماح عقله، فكان الأب يأتي له بمجموعة كتب ومجلات وهو في السنوات الأولىٰ من المرحلة الابتدائية ويقول له:

هذه لك يا مصطفىٰ، ولكنه لا يقول له ماذا سيفعل بها ..

يقول د. مصطفىٰ: طبيعي طفل في السادسة من عمره سيمزق هذه الأوراق (**الكتب والمجلات**) وكان أبي يراقبني في صمت، ثم وجدت وأنا أمزقها قصة مصورة بالأحداث وكل صورة فوقها عبارة تفسرها، جذبتْ نظري الرسومات بدأت أقرأ ما فوقها من عبارات، شدّني التسلسل، أمضيت اليوم في إعادة لصق الصور مرتبة حتىٰ استعدت القصة وقرأتها، وبعدها أصبحت هديته الأثيرة من أبيه مثل هذه الكتب والمجلات.

لنا أن نقارن الحال لو صاح الأب فيه: هذه كتب مكلفة اقرأها ولو مزقتها سأمزقك كما يفعل الآباء الآن!

يستمر الحنو في حياته بعد رحيل أبويه، ومصدره أخته الكبرىٰ، فعندما اختلف مع جمال عبد الناصر واتُهِم علىٰ مستوىٰ الدولة بالإلحاد ومُنِع من الكتابة وهُدِد بالاعتقال يقول:

كانت أزمة هزت أركاني، وزلزلت استقراري، فالقهر أن تكون وحدك منبوذًا تعيش كالعاري.. فما وجدت إلا أختي الكبرىٰ تأتي وتقيم معي، وكعادتها معي منذ كنت طفلًا تبسط

سجادة الصلاة وبعد أن تنتهي تأخذني في حضنها وتغطيني بحجابها الأبيض الكبير (الطرحة) وتظل تحدثني بما يبث الثقة في نفسي وتدعو لي ولا تتركني أبدًا، إلا وأنا أفضل مما كنت عليه قبل وجودها.

ننتقل للحاء الثانية وهي الحرية! لم يخضع لإجبار مدىٰ حياته إلا من عقله ودينه فقط.

من غرائب ذلك أنه كان يُجْبر علىٰ عدم الذهاب للمدرسة وهو يحبها يوم الجمعة، فكان كل جمعة بعد الصلاة يقفز فوق السور، ويقضي وقتًا طويلًا داخل المدرسة؛ تمردًا علىٰ حرمانه منها يوم الجمعة!

تخرّج في الثانوية بمجموع كبير وألح عليه كل الأهل ليدخل كلية الحقوق إذ كانت كلية القمة آنذاك يخرج منها الوزراء والسفراء، فأبىٰ وأصرّ أن يدخل الطب لا ليعمل طبيبًا؛ بل ليعرف الله من خلال صنعته للإنسان ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]، وبالفعل دخل الطب وكان يطيل الجلوس في المشرحة حتىٰ أسماه أستاذه (بالمشرحجي)!

شعر في فترة أنه وصل لهدفه من دراسة الطب، ووجد إجابات لما كان يحب أن يعرفه، فاتخذ من العزف هواية وترك كلية الطب عامًا كاملًا، ورغم هول القرار وكل الاعتراضات لم يتراجع إلا بعد أن أكمل عامًا كاملًا يعزف بلا مقابل مادي، حتىٰ اقتنع بأنه ليس طريقه وتركه بعقله كما أقبل عليه بعقله وعاد وأتم دراسة الطب هذه الروح الحرة أبت كذلك مغريات مادية لا يرفضها عاقل علىٰ وجه الأرض حيث عرض عليه كثير من رؤساء الدول أن يعمل بها معلما لعلمائها فرفض.

ثم تعرض لقرار صعب جدًّا بعد تولي السادات الحكم حيث ألح عليه لدرجة الإصرار أن يتولىٰ إحدىٰ الوزارات، فرفض أيضًا لأنه لا يتخيل عقله إلا حرًّا! واكتفىٰ بأن يكون المستشار الشخصي للسادات يلتقيان جمعة من كل شهر في شبين الكوم لتبادل الآراء وكان ناصحًا أمينًا دون تدخل أو إلزام بوجهة نظره..

ثم تظل الحرية حليفة هذا العقل الفذ فيذهب إلىٰ جنوب أفريقيا لمؤتمر صحفي ثم يأبىٰ العودة بالطائرة، ويصر علىٰ أن يعود من جنوب إفريقيا للقاهرة سيرًا علىٰ الأقدام! ليحقق أحلامه وتأملاته التي لم تفارقه منذ طفولته وهو يصنع مراكب

من الورق ثم يضعها في بقع ماء المطر في ساحة المدرسة ويرسلها للهند ويتخيل طبيعتها وصنعة الله بها وهو في مكانه بمدرسته! فأشبع جنين الحرية في عقله حتىٰ ولّد التأمل العميق لكل شيء، فنمت العبقرية في فكره عاد من جنوب إفريقيا سيرًا علىٰ الأقدام ومرّ بكل الغابات والأدغال والقبائل دارسًا طبيعتها وعقائدها وعاداتها وتقاليدها، يقول:

لم يكن يهمني أن ألتقط صورة واحدة لنفسي في كل هذه المحطات بقدر ما يهمني رؤية الله في كل صنيع تقع عليه عيني، حتىٰ ملأ قلبي اليقين ونبذ الشك عن علم وإيمان.

تنـــويه:

المقال هدفه الفوائد التربوية.. لا الحديث عن تفاصيل ومراحل فكره، ومخالفاته الشرعية، فقد أفضىٰ إلىٰ ما قدم وله ما له وعليه ما عليه !!

سلسلة ملح الحياة

٧- بمن نحتمي؟

كلُّنا يعاني من إزعاج الأطفال، خاصة في عطلة الصيف الطويلة وفي رمضان، ويزيد ذلك عندما يجتمع أطراف العائلة كلُّها في غالب هذه الأيام، بل إن هناك بعضَ الأسر ممن امتنَّ عليهم الله بالمودَّة والألفة يقضون الشهر كاملًا معًا في بيت الجد أو الأخ الأكبر وما شابه ذلك.

فلا نترك الأطفال يهنؤون بجَمعهم، ولا يتركوننا هم نهنَأ بخلوتنا مع الله، فتبرَّعت لأتولَّىٰ أمر الأطفال في هذا اليوم؛ إذ بلغ التعب من أمهاتهم مبلغًا!

فجمَّعتهم وجلستُ معهم وحدَنا، وكانوا من سنِّ الخامسة إلىٰ العاشرة؛ وذلك في محاولة يائسة لإشاعة الهدوء في البيت.

فكرت: فيمَ أتحدَّث معهم؟

طرأ في ذهني (الدعاء)؛ لأننا كنا في وقت السحر تقريبًا، فقلت لهم:

كلُّ واحد منكم يدعو دعوةً، ويظل ذاكرًا لها، وسيرىٰ أنها

ستتحقَّق علىٰ مدار عمره.

وأعطيتهم خمس دقائق، ثم سألت كل واحد:

بمَ دعوتَ حبيبي؟

فما وجدت غالبَهم يعرفون بماذا يدعون، وهذا خلل بيِّن في التربية!

فأوضحتُ لهم أن الدعاء: (أن نطلب من الله ما نريده بعد حمدِه والصلاة علىٰ رسوله)؛ ولأن الإنسان سيعيش الدنيا ثم يذهب للمقرِّ النهائي في الآخرة، فأكدت أنه:

كلما لجأنا إلىٰ الله بالدعاء، فعلينا أن ندعوَ بدعوة للدنيا ودعوة للآخرة، وأن أفضلَ ما في الآخرة الجنةُ بنعيمها؛ فلتكن الجنة مطلبًا ثابتًا في كل دعوة، ثم يُتبعها بما اشتهىٰ من الدنيا.

وجددت لهم المدة دون استفاضةٍ، وكنت أسهِّل لهم الأمور بما يناسب عمرهم؛ حتىٰ لا ينصرفوا أو لا يتحقق الهدف من الجلسة (مراعاة الحال)، وجدَّدْت لهم المدَّة وانتظرت، ثم سألت ثانيةً:

- ماذا طلبتم من ربكم أحبابي؟

- فسألني أحدهم: هل نستطيعُ أن نطلب من الله أيَّ شيء حتىٰ لو صعبًا؟

انتهزتها فرصة؛ لأثبِّت عقيدتهم، فحدَّثتهم قليلًا عن صفات الله ﷻ..

- وتلقفتني إحداهن:

هل يستجيبُ ربُّنا كلَّ الدعوات؟ ولماذا لا أرىٰ ذلك؟

وأنا أنتشي بكل سؤال؛ إذ يقرِّبُني من هدفي، ويجعل الفائدة أعظم!

فوضَّحت لهم أن جميع الدعاء مجابٌ، إما أن يحدث كما طلَبْنا من الله السميع البصير، وإما أن يؤخِّره للوقت المناسب؛ لأنه يعلم الغيب، وإما يجعله لكم رصيدًا للحسنات في الآخرة ولا يحققه في الدنيا؛ لأن تحقيقه سيكونُ فيه ضرر أنت لا تعلمه، ورويت لهم بعض صور جزاء الله للعبد الذي يدعو ويكون علىٰ يقين بالإجابة حتىٰ لو كانت في الآخرة، حتىٰ أصبح كلٌّ منهم يتراقص أنه طلب من الله أشياء ولم تتحقق، وسيكون له قصرٌ في الجنة بدعائه الذي لم يُستجَب، وعمَّقت في أنفسهم أن الدعاء في ذاته عبادة

وغاية، وما تحقق منه في دنيانا خير، وما تأجل فهو خير أوفر.

ثم جدَّدتُ السؤال: ماذا طلبتم من الله؟

نانسي قالت: اللهم اجعلني مقيمة للصلاة ومن ذريتي.

سارة قالت: أريد الجنةَ، وأن يكون زوجي مثلَ خالي فلان.

- نلاحظ: (هاتان الفتاتان تذهبان لمركز تحفيظ).

هدىٰ قالت: أريد أن أموت أنا وماما في يوم واحد.

مريم قالت: خواتيم سورة آل عمران، ثم توجه فكرها بتوجه فكر سارة، وقالت:

يكون زوجي كخالي فلان خالها الثاني (العجيب أن كلَّ واحد اختارت من يناسب شخصيتها فعلًا من أخوالها، وهنا نقف وننتبه أن الفتاة من سن التاسعة فعلًا تبدأ في إدراك الفروق والشخصيات).

- نلاحظ: (هاتان البنتان أمُّهما كثيرة الحوار معهما، ولا تترك شاردةً ولا واردة إلا وربطتها لهم بالدين).

- محمد: صامتٌ لا يعرف بمَ يدعو؟

- مصطفىٰ: بعد حيرة وتردُّد كرر إحدىٰ الدعوات السابقة، وهو أكبر الأطفال سنًّا.

- نلاحظ: أمُّهم لا تجلس معهم إلا لضرورة، وإن حدث فهي آمرةٌ ناهية معنِّفة فقط.

كانت هذه هي المرة الأولىٰ التي يمارس فيها الأطفال هذه العبادة رغم وصول أغلبهم إلىٰ سنِّ العاشرة وأكثر.

والله إنها عبادةٌ عظيمة لو عقلنا؛ فهي دواء مجَّانيٌّ للقلوب، وتحقيق سريع للرغبات، وباب عظيم لترسيخ حسن التوكُّل علىٰ الله تلازمًا مع الأخذ بالأسباب.

- وحفَّظتهم قول رسول الله ﷺ: «**الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض**».

أنبِّه أخواتي الأمهات: سن العاشرة ولا يعرف بمَ يدعو؟! والله إنه لتقصير منكنَّ عظيم!

أيها الآباء، لو تأملتم الصلاة لوجدتموها كلَّها دعاء، فعلِّموا أولادكم الدعاء، علِّموهم أن هناك مجيبًا قديرًا رحمانًا رحيمًا يفرح بالعطاء لك، وإجابة دعائك، كما تفرح أنت بالأخذ.

فلا يكون ملجؤهم كله للبشر حتىٰ لو كان الأب أو الأم؛ فالحماية الحقيقية من الله، والملجأُ الأول والأخير له، وستجد ثمار هذا الغرس لاحقًا، حيث سيعمِّق في نفسه قدرة الله، فيتجنَّب لاحقًا الرشوة والخضوع للمادة وغيرها.

علموهم دومًا: أن اللهَ أعظمُ من كل عظيم.

علِّموهم: أن للدعاء أوقاتًا وأحوالًا يكون الغالب فيها الإجابة؛ وهي: السَّحَر، ووقت الاضطرار، وما بين الأذان والإقامة، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء، ووقت الإفطار، وأوقات السفر، ووقت نزول المطر، وأثناء المرض.

الجميل في الموضوع أنهم جمَّعوا أنفسهم في اليوم الثاني، وأتوا إليَّ يطلبون مني جلسة ثانية مثل الأمس، مصرِّين علىٰ ذلك، وكأن أرواحهم عطشىٰ، وكيف لا وهو حديث تحفُّه الملائكة؟!

- سعدت بكم، ونلتقي دومًا في خير حال علىٰ أرض دنيانا، وتحت مظلَّة ديننا.

سلسلة ملح الحياة

٨- الحي والميت: (مشاري وعتيق)

لظروفٍ ما أُجبرتُ علىٰ تدريس الصف الأول الابتدائيِّ مدةَ أسبوعين، ذهب أحدهما والحمد لله، وهذا من كوارث الزمن في نظري؛ إذ إنني أدرِّس المرحلة الثانوية لأكثرَ مِن خمسةَ عَشَرَ عامًا؛ فوجدت (**مشاري**) نائمًا بعمق، تعاطفتُ معه وقلت في نفسي:

لم ينضبط نومُه إلىٰ الآن، معفوٌّ عنه.

وفي اليوم الثاني: مرَّ من الحصة أربعون دقيقة، ولم ينطق مشاري بكلمة واحدة معي أو مع زملائه، وهذا يخالف طبيعة الطفل، فتجاهلتُ الأمر وقلتُ: هادئ!

اليوم الثالث: وجب عليَّ مراجعة أحرف الهجاء معهم.

- انطق يا مشاري!

- مستحيل يسمع أحدٌ صوتي.

- تعال يا مشاري!

- ما يهزُّك ريح! لم يتحرَّك..

بحثتُ عن ركنٍ فارغ من الصف لأصلي استخارة سريعًا: أأذبحه أم أصبر؟! ثم تعوَّذتُ من إبليس وذهبتُ لمقعده، وأخذتُه للشاشة:

- ما هذا الحرف يا مشاري؟

- م،

- وهذا،

- ش،

- وذلك،

- ر..

- ممتاز مشاري، إلا أنه أصرَّ أن تكون إجابتُه بأذني لا يسمعها غيري، أجَّلْتُ أمر الاستخارة في ذبحه؛ إذ إنه يعرف الحروف كاملة!

اليوم الرابع: اكتبوا أسماءكم!

كتب الجميع ومررتُ عليهم لأتابع غير عابئة كثيرًا بالضعيف؛ لأنني لستُ معلمتهم الدائمة.

وقعتْ عيني علىٰ ورقة مشاري لأجده صاحب أجمل

ورقة، وأكثر خطٍّ متناسق، وكتب اسمه واسم أبيه بخط أفضل من خطِّي!

بدأتُ أرقبه لأجده عظيم التأمُّل، صائب القرار، فلا يقوم من مكانه مثلًا للجلوس أمام الشاشة (السَّبُّورة الذكيَّة) عند تشغيلها كوسيلة تعليمية؛ بل يظل في مقعده ويتابع بدقة، بَشْرتُه برونزية، عيناه عسليتان صغيرتان، مسحوبتان بجمال باهٍ، وفيهما عمق وبريق لم أَلْحظْهُ في طفل آخر...، قُدِّر لي أن أكون عليهم الحصة الأخيرة، وتابعته وهو يجمع أدواته فأذهلني صبره ونظامه في جمع الأشياء، حتىٰ علبة الألوان الخشبية لم يجمعها ارتجالًا؛ بل رتَّب الأقلام حسبَ تدرج الألوان، جذب انتباهي أن كلَّ قلمٍ محفور عليه اسم مشاري، فعلمتُ أن الأسرة تهتم به، وتعامله علىٰ أنه كائن له شأن وكامل الحقوق، قلَّ ذهولي عندئذ، وعلمت أن للاهتمام ثمارًا لا تذبل ولا تتعفن!

مشاري إن حظي برعاية جيدة مدىٰ عمره؛ فسيكون عالمًا أو شاعرًا -إن شاء الله- فلديه نظرة عميقة للأشياء والأحداث!

كم مشاري من أولادنا قررنا ذبحه دون أن نكتشفه!

قفز إلىٰ ذهني مباشرة صورة رجلٍ غبيٍّ ظل يضرب ابنته بعنف كأنها رجل مثله، وهي تماثل مشاري في العمر ضربًا مبرِّحًا؛ وكلُّ جريمتها أنها تعبت من السعي بين الصفا والمروة، ويجعلها تسعىٰ بالإكراه رغم تعبها الواضح وضعفها وغضاضة جسدها، بل يرفض أن يُجلسها جدُّها علىٰ أحد كراسيِّ الحرم ويجرُّها رحمة بها، وظل يضربها ويشدُّها من كتفها وما بقي إلا أن يسحلها! متجاهلًا نصح أبيه، وفي هذا المكان المقدَّس، وبملابس الإحرام، أي إحرام لجسد قلبه لم يحرم؟!

الأولاد أمانة ونعمة تستحق الرعاية فهم أهم مدخراتك!

عتيــق:

اسم جميل يفوح طيبًا لكنه لطفلٍ مهزوز، الجاكيت أكبر من جسده، وكأنه سيرتديه لعامين قادمين، النظارة ضخمة تكاد تبتلع وجهه وكأنها كانت لكبير ثم وضعتْ عليها عدسات له، الأسنان بالية حد التعفن، الحركات فيها تردد كبير بين إقبال علىٰ طبيعته كطفل، وبين إحجامه عن ذلك، وكأنه يتذكر

تحذيرات عنيفة تأكل قلبَه فيعود عن تجاوزه الذي هو من طبيعة عمره!

عتيق يجلس بجوار مشاري مباشرة، بعد قليل من الوقت وقد آنس مني لطفًا، جاءني ليهمس في أذني: (أنا لا أحبُّ أمي ولا أبي)، تفاجأت بهذا الاعتراف من ابن الخامسة، ودون أن أسأله عن السبب حاولت إبعاد الفكرة من ذهنه بذكر مواقف حنوِّهم عليه كأيِّ كائن بشريٍّ له ولد، ولكني لم أفز بما أردته، فأقصىٰ ما فعله هو الصمت ثم الانسحاب!

انتبهت له وضاعفت الاهتمام به، وفي حصة تدريبية وبعد توزيع ورقة عمل لتلوين الأحرف عليهم أتاني ليريني إجابته، فسألته متلطفة بعد أن أثنيت عليه:

- كيف حال ماما وبابا عتيق الجميل؟

قال في أسىٰ وكأنه شيخ لا طفل:

- (لا أحبهم، دومًا يهاوشونني[1]، هم لا يحبونني!).

حبست دموعي، وبدأت عبثًا أسأله عن معنىٰ اسمه،

(١) الاختلاط والافتتان، وفي اللهجة الخليجية (العراك).

وأُبَيِّنُ له أنه مميز حتىٰ في اسمه علَّني أمسح غلالة الحزن التي تكسو قلبه ومظهره، ذهب لمقعده راضيًا وانشغلتُ بغيره، فجاءني بعد دقائق ومعه ورقة عمل (تدريبات علىٰ بعض المهارات) مرسلة من أمه إليَّ، ولم أطلب منها ذلك ولم يحن موعدها حسب خطة المنهج، توقعت أنها أرادت أن توضح لي مستوىٰ الطفل سريعًا قبل أن أكوِّن فكرة عنه، هذه الأم تعبت مع ابنها حتىٰ أجابَ عن ورقة العمل بنظام وهو في الصف الأول الابتدائي، كما أنها أدخلت ابنها أفضل مدرسة بالمقاييس العالمية رغم تكلفتها الخيالية، ولكن للأسف وبكل بساطة فقدتْ حب ابنها لها، فهي تُحمِّله فوق طاقته، وربما تعاقبه علىٰ إنفاقها عليه الوقت والمال، وما علمتْ أنها تُرزق لأجله، ولو أنها لم ترزقه هو نفسه لأنفقتْ ضعفَ هذه المبالغ والأوقات علىٰ الطب والدواء؛ لتحظىٰ بمثله غير مبالية بالألم والعمر والصحة.

كم من نعمة لا ننظر إليها، بَلْهَ التفكير في شكر الله عليها!

أنتم ترزقون لأجلهم، فلا تجلدوهم بسوط عطاياكم، أنت ملزم بالإنفاق عليه وأنت مبتسم راضٍ وليس عابثًا قانطًا، ما في جيبك لم يأتك إلا لأجلهم؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا نَقْتُلُوٓاْ

أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ [الإسراء: ٣١]، قدمهم الرزاق أولًا فهو الرحمن الرحيم الوهاب الكريم، لا تمنَّ عليهم بما لم تملكه، فأنت موكل من ربك عليهم مرزوق بهم.

وقتل الأرواح لا يقلُّ جُرمًا عن قتل الأبدان، فُوزوا بالقلوب أولًا قبل الشهادات والمباهاة بالمدارس الفخمة والدرجات العالية، فهذا والله لا يساوي شيئًا، بل ممقوت إن قورن بذكرىٰ طيبة تغرسها في قلب صغيرك، فتأنس روحه بتذكرك وتذكر مواقفك معه.

ملح الحياة

٩- ليس التأخير كالمنع

المشاعر الإنسانية كائنٌ حيٌّ، ينمو ويتغيَّر، ويَشِبُّ ويهرَم، ويتعقل ويندفع، ولا بدَّ من إشباعه كأيِّ كائن حيٍّ آخر، وإلَّا سيحدث له خلَلٌ ما، وبما أنَّ هذا الكائن يعيش بقلبك، ويؤثِّر على نفسك ومزاجك وطموحاتك؛ فعليك إشباعه ليكون متَّزنًا.

فنجد غالب علماء النَّفس يربط بين ذكاء الطِّفل ونموِّه الطبيعي، وبين حبِّ الأمِّ ورعايتها وما تبثُّه فيه من مشاعر، يكتسب منها ثقةً وقدرة على المواجهة.

وما أن يصِل الطِّفل إلى المراهقة إلَّا ويحتاج جرعةً أكبر من هذه المشاعر؛ لأنَّه يرى نفسه في مرحلةِ تطوُّرٍ جسديٍّ تُخيِّل إليه أنَّه أصبح كاملَ الرجولة/ أو كاملة الأنوثة، وهنا على الأسرة الانتباه له ومضاعفة إشباع مشاعره، وإلَّا سيبحث عنها خارج نِطاق سيطرة الأسرة كلِّها، ومن هنا يكون معرَّضًا لرفاق السوء/ أو رفيقات السوء كذلك!

فنجد الفتاة مثلًا التي تتلقى مشاعرَ الحبِّ والدفء،

والحوار الأسري والاحتضان، وترك مساحة من الاستقلال لها في محيطٍ رقابي مرِن - نراها أقل عُرضة للوقوع في علاقات غراميَّة لا تصحُّ لها في هذه المرحلة -خاصة أنَّ تأخير سنِّ الزواج هو المأخوذ به في مجتمعاتنا- فلا يعلم منتهاها إلَّا الله، حتىٰ لو كان هذا الغرام بأحد المشاهير كما يحدث، فهو استنزاف للمشاعر وللطاقة -وحتىٰ الأموال- بلا طائل.

فرعاية المشاعر وتعهُّدها في هذه المرحلة لا زال مرتبطًا بالأسرة؛ لتكمل نقص الخِبرة والعمر في نَفس الابن؛ لتقلِّل إخفاقه في كثير من العلاقات، وتوفِّر عليه مشاعرَ سلبيَّةً كثيرة كان حتمًا سيقع فيها إن لم يُدعم عاطفيًّا من الأهل.

نأتي للشاب والفتاة بعد تخطِّي هذه المرحلة واكتمال الرجولة والأنوثة، فقد وصلتْ لمرحلة الاستقلال العاطِفي، وبدأت تفرِّق بين حبِّ الأبوين وحبِّ الفطرة في الجنس الآخر، فأبدأُ حديثي مع هذه الفئة بـ:

- ليس التأخير كالمَنع!

الحمد لله أن ديننا الإسلام؛ فقد أقرَّ بوجود الشهوات، ولم يَكبِتْها، ولم يجعل مَن اشتهاها مذنبًا يقتل بين ضميره

وشهوته حتىٰ يمزق بيديه أحدهما، ويعيش إمَّا عبدًا لشهواته بلا ضمير، أو منكسر النفس لا يَشعر بالحياة يسيطر عليه شعورُ الحرمان!

بل أقرَّ خالقُك ما تشتهيه، ولم يسجن فِطرتَك التي فطرَك عليها؛ فقد قال تعالىٰ:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالدِّين أبعد ما يكون عن تنكيد الناس واعتبار الفِطرة غولًا يطارد الناس؛ بل مَن خلقك بك عَليم، ما كان أن يفطرك علىٰ شيء ثمَّ يعاقبك أن شعرتَ به...

فقط اضبط سلوكك؛ هذا هو ما ستُحاسب عليه، ولا تتكلَّف كثيرًا في هذا الباب؛ وليكن شِعارك لنفسك في هذا الأمر:

(مرَّ الوقتُ واقترب المراد)، ما هي إلا مسألة وقت.

وإن وقَع منك ما تُحاسَب عليه، فلا أوسع من باب ربِّك،

اثبت عليه، واطلب توبته، واقتدِ بالصالحين، واختر رفقةً تعينك علىٰ الصَّبر، واعلم أن الله كتَب علىٰ نفسه الرَّحمة، فأقبِل عليه واستبشر، فسيعطيك جائزةَ ثباتك؛ ليس بالمغفرة فقط، بل سيبدل السيِّئات حسنات بكرمه، ما عليك إلَّا أن تسمع نداءه:

- ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وماذا سيعقب هذه المغفرة؟

- ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ما صفاتهم؟

كيف أكون منهم؟

هل ألحق بهم؟

من أين البداية؟

- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

نعم، ولكن أين أهرُب من ذَنبي الذي فعلتُه؟ إنه يكبِّلني، أخشىٰ عدم القبول..

أشعر بالإحباط!

إليك باقي الآيات: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

الطَّريق واضح.

ملح الحياة

١٠- أيهم أنا؟

عندما كنت صغيرةً، وكان أحد إخوتي عندما يحتاج شيئًا من أبي، كان يطلب مني أن أبلِّغه أنا، وعندما كنت أجلس مع أبي ومعه بعض أصدقائه كانوا يقولون لي: أنت محامية مفوَّهة، حتمًا ستدخلين الحقوق إذا كبرت!

وعندما كان يغفل معلمي عن دورِه في إعداد برنامج الإذاعة ولا يعدُّه، كان يقول بكل بساطة: أحضِروا منىٰ تلقي كلمة... وغالبهم رشَّحوني لدراسة الصحافة، وكنت أميل لذلك، وأعتبرها الخيار الأوفق.

وعندما رُزِقت الصداقة الحقيقيَّة اصطحبتْني صديقتي الأقرب إلىٰ نفسي لأن أكون معها معلِّمة؛ استجبت لها؛ حتىٰ لا أفارقها؛ لعُمْق حبي لها، وصداقتي معها؛ ولأن التدريس مهنة تفاعليَّة تتفق مع ميولي.

دخلت كلية الآداب، وبقي دور اختيار القسم!

التحقْتُ بقسم اللغة الإنجليزية لتميُّزي فيها، وحبي الشديد لها آنذاك، وبعد أسبوعين رفعوا نسبة القَبول في القسم

نفسه درجتَيْن عن درجتي؛ لتخفيف العدد، فخيَّروني أن أذهب لقسم آخر، فاخترت اللغة الفرنسية؛ لحبِّي لها كذلك، وما إن حضرت المحاضرة الأولىٰ إلا وقرَّرْتُ تركَ هذا القسم؛ لأن القاعة ضيِّقة جدًّا عن العدد، وبهذا الشكل لن أحضر؛ فلا فائدة من شهادة بلا علم أو تفاعل مع معلِّم تنطبع شخصيته عليك إيجابيًّا.

عدْتُ لحيرتي! أيَّ الأقسام أختار؟

قررت دخولَ قسم الجغرافيا؛ لأنها مادة مميَّزة عندي، وأشعر بسعادة ومتعةٍ في دراستها، فحضرت المحاضرة الأولىٰ التي كانت عن معنىٰ كلمة جغرافيا (وصف الأرض)، وتوزيع البشر علىٰ حسب لون البشرة، ونسبة الميلامين في الدم، وارتباطها بالموقع الجغرافيِّ حسب الحر والبرد.. ولكن حتمًا سأترك هذا القسم؛ لأن القاعة تضيق عن العدد، ولن أحضر ولا فائدة لشهادة بلا علم، هذه عقيدتي.

عُدْتُ لحيرتي! أيَّ الأقسام أختار؟

قرَّرتُ دخولَ قسم الفلسفة؛ فهي مادة ثريَّة وثقافية، وهنا تدخلت صديقتي الأقرب والأعلم بنفسي ومنعتْني بكل قوتها،

وقالت: كفاكِ حيرة؛ لقد اخترتُ لك، وغدًا ستسجِّلين لغة عربية مثلي، فما خُلقت إلا لها، وباتتْ تمتدحني لترغِّبَني فيما تراه لي نافعًا.

استسلمت لها؛ تخلُّصًا من الحيرة.

وما إن بدأت الدراسة إلا ووجدت أكبر مدرجات في الجامعة مخصصة للغة العربية لكثرة عدد الدفعة، ووجدت متعةَ دراسة اللغة التي أحببت الإنجليزية من أجلها .

ودراسة سير العلماء والمفسِّرين والأدباء؛ فطفت معهم حيث حقَّقْتُ حبِّي للجغرافيا، وتنقُّلي المستمرِّ مع كل عالمٍ وأديب لوطنِه وحياته وخيالِه وسبحاته.

ولم أُحرم الفلسفة من خلال القضايا النقدية التي كنا ندرسها، بل فاض اللهُ علينا بفهمِ القرآن ومعانيه، والبحث وراء بلاغته.

هنا وجدت نفسي التي لم أكن أعرفها.

نعود للبداية، وأسأل: أيُّهما كان خيرًا؟

بعد الخبرة بالحياة والنفس علمت أنني لو دخلتُ

(حقوق) أو (إعلام) يقينًا كنت سأخسر الكثير، ولن أزيد علىٰ أن أكون إحدىٰ المتعصِّبات لفكرٍ (اللهُ أعلم به)!

أَمَا وقد هداني اللهُ لدراسة اللغةِ وتدريسِها، فقد أسهمتُ في إعداد نفوس وعقولٍ علىٰ ما أعلم أنه خير، وأسأل الله أن يغفر لي تقصيري إن قصَّرت.

ابني الغالي، ابنتي الحبيبة، يا من أنت علىٰ مشارف الجامعة، خُذْ بالأسباب، لا تختَرْ شيئًا لا تهواه نفسك، استعن بالمخلصين فيمن يعرفونك جيدًا، وخذ بنصحهم، وابذل الأسبابَ، وتوكل علىٰ الله، واحتسب ما أقامك الله فيه لخدمته سبحانه أيًّا كان موقعُك.

لا تبكِ كثيرًا علىٰ ما كنت تتمنَّاه، بل أثبتْ وجودَك فيما أنت فيه، واستقبل رسائل ربِّك إليك، ستعرف عندها أنه ما اختار لك إلا الخير ما دمت بذلتَ ما استطعت من سبب.

بورك غرسُكم، وطاب الثمر.

ملح الحياة

١١- بنت الحلال

اعرِف نفسَك أولًا ثم اختَرْ.

مرحلة اختيار الزوج من أصعب المراحل علىٰ الجنسينِ، ولا أجد أسهلَ منها إن اتبعنا المعيارَ المحمدي:

لكِ: «**مَن ترتضَون دينه وخُلُقه فزوِّجوه**».

ولكَ: «**اظفَرْ بذات الدِّين**».

باقي المواصفات نسبيةٌ، تزيد وتقل حسب تقبُّل كل فرد للآخر، وكل نقص يُجبَر مع الوقت، حتىٰ جمال الوجه أو قبحه يَفقدان أثرَهما بالإلف والعشرة.

حديثي هنا لأبنائي الشباب الباحثين عن بنت الحلال، فإني أراكم علىٰ **ثلاثة أصناف**:

- **صنف هو عوامُّ الناس**، يعيش بأهداف محدودة، وطموح يعادل قدرتَه، وهذا حسبه ما سبق وذكرناه من حديث رسولِنا الكريم ﷺ.

- **صنف رضي بنفس بليدة**، لا همة لديها ولا طموح،

نفس عقيم تمرُّ عليها السنون والأيام، وهي كالحجر الصوان الأملس، لا يُمسك ماءً ولا ينبت كلأ، يعيش صاحبها ويموت وهو ما أتىٰ الحياة؛ إذ إن حياته برتابتها ومرور الأشياء عليها دون أن يتأثر بها أو يؤثِّر فيها هي موت، وموته الحقيقي موت، ونجده يخوضُ في غالب المحرَّمات، وكأنه موكل بالجسد فقط، فاقد للروح، والمضحك المبكي في آنٍ أنه عندما يُفكِّر في الزواج يبحث عن قدِّيسة، كاملة الأوصاف!

ولهذا الصنف أقول:

تغيَّرْ وابحثْ عن مواطن الخير في نفسك، واسقِها بالطاعة حتىٰ تستقيم، فما خلَق الله تعالىٰ نفسًا كلها قبح، وكأنها عِبرة للبشر، حاشا لله، إلَّا تفعَلْ تَكُنْ ظلمت أيَّ فتاة تُدخلها سجنك بلا جَريرة، وأنت تعلم مِن نفسك ويعلم عنك العقلاءُ أنك كالأنعام وربما أضل!

- **الصنف الأخير** -وهو ما دفعني للكتابة- **نفسٌ توَّاقة**، لا تبلغ مرادها أو تنتهي لِمَا أرادت إلا وألقت به خلف ظهرها، ورسمت هدفًا أعظم، ثم بدأت رحلة جديدة، يجول ويصول فيها صاحبُها ليُرضِي تلك التي بين جنبَيْه، ويا ليتها ترضَىٰ!

وهذه النفس التواقة غالبًا زاكية طيبة، يفوح عبيرُها علىٰ الدنيا، فهي وقودٌ للحياة بما تنتج وتثمر، فتنثر علمًا وشعرًا، أو فقهًا ونفعًا، أو إصلاحًا وتربية، وأصحابُ هذه النفس هم القادة والقدوة غالبًا.

لهم أقول:

لن تصلح لك زوجة، هي بَدْءًا طالبةُ علم، لديها شهوةُ البحث والكتابة والظهور، فإن أنكرَتْ ذاتها إيمانًا بك، ستُعظِّم تضحيتها إلىٰ الحد الذي يخنقك، وربما تقتل طموحَك بالمنِّ والأذىٰ، وإن أشبعَتْ طاقتها في الطلب، فسينتقص ذلك منك أنت، ومِن عطائك للرسالة التي خلقك الله تعالىٰ بنفس مميزة من أجلها، فالأصلح لكَ أنثىٰ بفطرةٍ سليمة، وذكاء جبلي، لديها من العلم ما يكفي لإقامة حوار وتفاهم بينكما، تنبهر بك فتُعِينك، يسعدها تقدُّمُك فتفخر به وتقول لك: هل من مزيد فأزيد؟ باختصار تكون أنتَ مشروعَها ورسالتها.

وما يثبت صحةَ هذا الرأي ما رأيناه من حالِ علمائنا المعاصرين، فمما ذكر (عبدالله نفاخ) عن أبيه العالم المعروف (راتب نفاخ)، أنه لم يُهدِ مِن مكتبته الضخمةِ لزوجته إلا كتابَ

(**أباطيل وأسمار**)، وهي بدأت قراءته ولم تكمله!

ومثل هذا ذكر الشيخ القاضي علي الطنطاوي عن زوجته، ولا يخفىٰ حالُ شيخ العربية محمود شاكر في زواجه من إنسانة ذابت فيه وخدمته بروحها قبل جسدها، كما ذكر طلابه والمعاصرون له.

فلا تأخُذْ مَن تكون لك ندًّا، أو مَن لا تتحمل تَبِعات موهبتك بخضوع ونفسٍ راضية؛ حتىٰ لا يتولَّد بينكما صراع، وبالتالي لن تجد دائرةَ العقل والتأنِّي التي تأخذ بيدِك، وتصنع لك أرضية الانطلاق، بل ربما تعيش معها منعزلًا عنها، وهنا التعاسة واقفةٌ علىٰ قدمين، فتعيشانِ نصف حياة؛ قربٌ ظاهري، وانفصال حقيقي!

واحذَرْ كذلك الزواج مِن الجاهلة التي تُسفِّه علمك، وتسخر مِن بَذْلِك الروح في سبيل رسالةٍ اصطفاك الله تعالىٰ لها، حسبك روحٌ نقية تؤمن بك وتذوب فيك، وترىٰ سعادتها في عونك علىٰ إسعاد الناس وتعظيم رب الناس بإعلاء كلمته.

رأيتُ مِن حولي كوكبةً من طلبة العلم يتأخر زواجهم رغم الاستطاعة، وما ذاك إلا بحثًا عن نموذج في خياله،

أو انبهارًا ببعض صفحات الفتيات في مواقع التواصل، يا أخي، غالبُه قصٌّ ولصق، ولولا مجموعةٌ مِن المصفِّقين -وإن أنصفت فلتقل: الطامعين- ما كان لهن رواجٌ، هذه الأوهام لا تبني حياة عالم، رغبتُه في العطاء تفوقُ آماله في الأخذ.

فيا طالب القُربِ، انتبه وأحسِنْ إلىٰ نفسك بحسن الاختيار.

وفَّقك الله وفتح علىٰ قلبك، لا أقدحُ في الفتيات المجتهدات بالطبع، فلهن دورهن الكبير أيضًا، لكني أُنبِّه شبابًا تُعقد عليهم الآمال للأمة جمعاء، في مرحلة من عمرِها، أنهكها الصراعُ أو يكاد!

ملح الحياة

١٢- لمن تنتظر زوجًا غير عادي

كتبتُ:

ترتيب الشهوات!

كأيِّ أنثىٰ أحبُّ الثناءَ، أَطرَب له، أطير مع العصافير إن أحببت.

أجوب الجبال، ولا تمنعني إمكانيَّاتي الضعيفة؛ بل تتحوَّل قوَّتي لقوة الطبيعة التي تتربَّع في قلبي إن كان حيًّا بالحب أخذًا ثمَّ عطاء، حتىٰ يسبق العطاء الأخذ، ثمَّ يغلِّفه ويكسوه.

طموحاتي كبيرة.

آمالي في زوجي لا حدود لها.

رأيتُه مرةً (ابن تيمية)، ومرة (خالدًا)، وثالثةً (شوقي)، و(عمر)، و....

حتىٰ أتاني ذلك الخطيب، الذي لمعتْ عيناي وخالتي تعرِّفني عليه:

- شاعر.

- له ديوان وهو في مقتبل عُمُره.

- حروفه تذيب الحجَر.

- طالب علم.

- يقرأ في الموسوعات والمجلَّدات.

يا ألله!

إنها الجنَّة، سأسكن قلبه وبيدي مصحفي لا أكثر.

هو كفايتي، من أحتاج وهذا حال زوجي؟!

بادرتُ بالموافقة...

دامت حياتنا كما رسمتُها، ولكن ترتيب الرغبات أخذ يتغيَّر كل فترة.

كانت رغبات الجسد؛ كالطعام والاستقرار، والسكن إليَّ، وسرد أحداث الطفولة والمراهقة، والآمال والهمَّة في الطلب - هي المقدمة في بداية زواجنا، واعتبرتُ ذلك طبيعيًّا؛ فنحن ما زلنا في مرحلة تعميق المعرفة ببعضنا البعض.

انتظرتُ أشعارَه فتأخَّرتْ، فأصبحتُ أحتال لاستفزاز قريحته لأحظىٰ بأبيات يقولها فيَّ، وكانت كأعظم كنز أحتفظ به وأتقلَّده في صدري من حين لآخر.

وربما كانت قصائده هجاء يزعجني قليلًا، ثمَّ يحرص كلانا علىٰ تحويله لمادة طرافة وضحك.

تهتزُّ أركاني إن سمعتُ نغمتَه علىٰ الهاتف الخاصَّة به قبيل قدومه.

فأركض وألبس أجملَ ما عندي، وقبل أن أفتح الباب أتعطَّر بأريج الحبِّ قبل أن أمس عطري.

أستقبله بعينين لامعتين تتدفَّقان حياة وبشرًا وأملًا:

- حضرتْ جنَّتي التي تؤويني.

هكذا أردِّد بصوتٍ مَسموع وأنا أجهِّز السفرة سريعًا.

ثمَّ يأخذنا الحديث والطعام، والضحك والعتاب.. حتىٰ يبرد الطعام، فنتركه ونشبع بحبِّنا.

ثمَّ -وآهٍ منك يا ثمَّ!- تبدَّل ترتيب الرغبات؛ إذ تمَّ التعارف الكامل بيننا.

سرد كلانا كلَّ ذاكرته وكأننا وُلدنا معًا.

بدأ الحوار يقل ويَقتصر علىٰ أهمِّ الأحداث اليومية البارزة.

بل قد يقوم أحدنا من الطعام قبل الآخر.

فكرتُ وقرَّرتُ تنشيط السعادة؛ هذه مسؤوليتي.

أخذتُ أتفقَّد كتبَه وأعرف أحبها إليه، وأجهِّز منها مادَّةَ حوار ونقاش، وأحيانًا أتعمَّد إظهارَ الفَهم المغلوط لتأخذه شَهوة العلم ويصحِّح لي، ويتحدَّث وينفعل، ويراهن أنَّني فهمت خطأ.

وأنا أروي صدىٰ قلبي بهذه اللحظات، ويزيدها أنَّها صناعتي، وأنها تضيف لسعادتي به سعادتي بالنَّجاح فيما أردت.

ثم -وآهٍ من ثم!- تبدَّل ترتيب الرغبات.

كلَّما أعددتُ موضوعًا وتعمدتُ استفزازه قال:

- أعيدي قراءتَه؛ واكتفي!

كنا رُزقنا طفلًا، فأصبح لدينا سعادة جديدة.

سعادة تأخذ عَقلي وقلبي.. فعندما ينامان وأراهما نفس

الشكل وكأنَّ طريقة النوم وراثية، أو أراه ملهوفًا عليه، فأكتفي وأتقوَّت من حبه لابني، وأستشعره حُبًّا لي..

استعدتُ قلاداتي من شِعره بأشعاره في ابني.

ثم -وآهٍ من ثم!- تبدَّل ترتيب الرغبات، وثبتت الشهوة الأصليَّة فيه، وظلَّت في المقدمة!

شهوة الحرف، وما أقبحها من شهوة عندما تَمتلك الحياة علىٰ صاحبها!

لا تصلح لصاحبها زوجة إنسانة! بل حتمًا تكون حجرًا.

حتىٰ لا تنتظر حرفه الذي يحييها، ويركض هو لاستنشاق عبير كتابٍ ما والشبع من شِعر كاتبة، والطرب من جريدةِ أستاذه، والكارثة أنَّ كل ذلك في صمتٍ قاتل.

وكلما استترتُ لسانَه مدَّ يده لي بمقال أو مجلَّة أو ديوان أو..، قائلًا:

- اقرئي هذا، ستنتشين!

كنتُ ساخطة علىٰ هذا، لكني اكتفيتُ بحِضن ابني وكلماتِه ناقصة الأحرف عظيمة الدلالة.

ثمَّ أردفتُه بآخر.

أستنشق منهما رائحة الحياة، وما زلتُ أحلم بيوم يكون فيه قلبه جدراني، ومعي مصحفي مثلما تخيَّلتُ يوم جاءني خاطبًا.

لكني كنتُ أهتف لأصبِّر نفسي:

- كوني له معينًا، أنتِ مأجورة، غيره يقضي أوقاتَه في المقاهي والمباريات..

فرِفعتُه رِفعتك.

علمه ميراث وسلطان أولادك.

ثمَّ -وآهٍ من ثمَّ!- تبدَّلت الرغبات وبدأ يستبدل واقعه بمواقع التواصل الاجتماعي..!

أكملي أنت..

يا من تريدين زوجًا غير عادي.

ملح الحياة

١٣- هل افترشتم الورود ...؟

قدم عليكم الحبيب ونعمّ الحبيب هو إن كان كريمًا..؟

كم تمنينا في لحظات كثيرة أن تخلو الحياة من الشيطان! ونحيا آمالنا وآلامنا بلا نزغ يفسد علينا كسبنا ماديًّا كان أم معنويًّا، والحمد لله أنه جل في علاه يمنحنا هذه الفرصة بكرمه وحلمه وما أعظمها من فرصة! يضع الله صانعك لك برنامجا يخلصك من ثقل مادة الطين في خلقك لتسبح روحك خفيفة راضية محلقة نافرة من غلبة الشهوات عليها.

إنه رمضان والله إن وجد في عمرنا أحد أو شيء تفرش له الأرض بالورد لكان هو أسمعك تصدقني وتهتاج مشاعرك شوقا لعبق نسائمه التي نشعر أنها تحمل شيئا من نسيم الجنة ولكن كذلك أسمعك تردد كيف..؟

كيف نفترش الورد في رمضان؟

سؤال سهل إجابته إن صدقنا..

فقط اصدقْ ستجد من رزقك سَلسَلة الشيطان يرزقك افتراش الورد وهناك خطوات لابد من ترويض النفس عليها

حتىٰ لا تظل نافرة يتركها الشيطان فتنزغك هي كأقوىٰ شيطان، كل الشيوخ والعلماء أفاضوا في كيفية الاستعداد لرمضان وسنسرد جانبا من نصحهم لكني أستبق ذلك بخطوات أساسية لا يعلمها إلا أنت لأنها تتعلق بذاتك وقلبك قد لا يعرفها أحد غيرك.. وهذا هو الورد الذي ستفترشه.

الوردة الأولىٰ:

نق قلبك من الغل والحقد علىٰ الآخرين فالحقد والحسد والبغضاء من أمراض القلوب فكيف يهمّ قلب مريض تتخطفه الأحقاد وتهلكه الغيرة وينزغه الحسد كنزغ الشيطان وأشد نزغًا؟ وكن علىٰ يقين أن ما أقامك الله فيه هو الخير، وما منحك هو ما يناسبك، وماحرمك منه فيه رحمتك فكم من نعمة نركض خلفها ثم نكتشف أنها كانت هلكة لا نعمة..!

الوردة الثانية:

عمق يقينك بالله وارض عنه واعلم أنه أعطاك ما أعطاك رحمة وحرمك مما حرمك رحمة (لا يعني هذا التواكل في شيء فالأخذ بالأسباب أساس العمل، أتصح صلاة بغير

وضوء..؟ فرجاء عدم الخلط).

- كثير يقول نحاول ونفشل فليس لدينا زر نضغط عليه فيصفو قلبي وآخر أضغط عليه فيحقد أو يحسد..!

و أقول لهم:

نعم لا أختلف معك ولكن لكل مرض علاج..

أولًا: اعزم علىٰ تنقية قلبك، لا تفكر كثيرا في الإساءة، ابعد عن الأشخاص الذين يثيرون في نفسك الضغينة ، تجاهل الأحداث التي تثيرها في قلبك.

ثانيًا: اطمع في الأجر وتذكر ذنوبك تخيل نفسك بين يدي الله ترجوه المغفرة فيقول لك أنت ما عفوت وما استطعت (وله المثل الأعلىٰ جل في علاه) كيف سيكون حالك عندها؟

وكيف سيكون حالك لو قال لك: عفوت عنك فأنت عفوت عن عبادي؟ .. لك أن تختار.

ثالثًا: إن كان ما وقع عليك ظلم أو قهر.. فوكلْ ربك يقتص لك وولهِ أمرك وأرحْ صدرك وقلبك، فقد ارتكنت إلىٰ ركن متين ميزانه بالذرة لا بالجرام..! حرم الظلم علىٰ نفسه

ولا يرضاه لعباده.. عندها ستستريح ولا تشعر بعجزك أمام الظالم فقد أوكلت القوي المتين يقتص تلك..

الوردة الثالثة:

تأتي بعد أن عبّدت الطريق بتنقية قلبك ستجد جوارحك نشطة قوية مشتاقة للعمل مستمتعة به محبة له وليس مجرد أداء.. سيكون أداء الحب في العبادة وليس الطمع في الأجر فقط وإن كان مهمًا..

مرِن جوارحك علىٰ الطاعات قبل رمضان حتىٰ تستزيد إن وصل الضيف الكريم.

صم ما استطعت في شعبان.. اقرأ ولو جزءًا واحدًا من القرآن.

نوّع أعمال البر التي تستطيع فعلها.

درب لسانك علىٰ ذكر الله ﷻ حتىٰ يصبح من لوازمك الحياتية لا مجرد عبادة محدودة بوقت معين فالذكر حياة القلوب وهو شفاء لها وطمأنينة.

احرص علىٰ الوتر كخطوة أولىٰ ثم استزد.

واقرأ من المصحف سوراً جديدة تبعدك عن الشرود أثناء قراءة المحفوظ..

الوردة الرابعة:

وتعتبر الأهم، جالس الصالحين واقرأ أو استمع لسيّر الصحابة ومن لا يعرف كيف..؟ عليه (باليوتيوب) فهو ثروة طيّعة بين يديك لا تهملها هذا إن لم تستطع مجالسة الصالحين في الحياة الواقعية من حولك.

أسأل الله لكم الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يعيننا علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته، ويقيمنا حيث يرضىٰ، ويبعدنا عما يغضبه، ويبلغنا رمضان ويعيننا علىٰ قضائه علىٰ الوجه الأكمل الذي يحبه من عباده الصالحين، ويتقبله منا بكرمه هو ولي ذلك والقادر عليه، نواصينا بيده ماض فينا حكمه عدل فينا قضاؤه، له الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا..!

حلقة نقاشية عنوانها:
من أنـا؟ مـا هويتي؟

يجدر بالأب والأم أن يقيما مثل هذه الحلقات الحوارية البعيدة عن الأمر والنهي لترسيخ القيم والهوية في نفس الأولاد، هذا نص حلقة نقاشية حول الهوية أعددتها للطلاب وقد كان لها أثر كبير في ترسيخ كثير من المبادئ في نفوسهم، وردت علىٰ كثير من الأسئلة التي تدور في الأذهان في مراحل النمو الأولىٰ.

(الطالبات يَجلسْنَ علىٰ شكل نصف دائرة فوق المسرح، وتتوسَّطُهنَّ مديرة الحلقة).

البداية: تقف مديرة الحلقة (إيمان) وتُلقي هذه المقدمة:

إيمان: في إحدىٰ حصص التحدُّث طرَحت المعلمة سؤالًا أخذ من نفسي ومن تفكيري، وفكَّرت كثيرًا فيه، ثم قررت طرحه عليكم، بل أريد أن يسأله كلٌّ منَّا لنفسه، السؤال هو:

مَنْ أنت؟

- فكرت كثيرًا: حقًّا، مَنْ أنا؟ مَنْ أكون؟

في الحقيقة جلست أفكِّر كثيرًا في الإجابة عن هذا السؤال، ولأنه سؤال صَعْب يبعَث الحيرة في النفس، أخذتُ أبحثُ حتىٰ توصَّلتُ إلىٰ أن معرفة النفس شيءٌ صَعْبٌ حقًّا، فالإنسان لديه رُوح وجسدٌ، وكلاهما عظيم، فالرُّوح حجَب كُنْهَها ربُّ العباد عن البشر، وقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

أما الجسد فهو عظيم أيضًا، غير أن الله كشَف لنا شيئًا من سرِّه، وجعله مدادًا للتأمُّل؛ حيث أمرنا -سبحانه- بالوصول لقُدرته وعظمته من خلال هذا الجسد المعقَّد في تركيبه، والعظيم في صناعته؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وحتىٰ أخرُجَ من دائرة الأفكار الواسعة هذه، أعَدْتُ السؤال علىٰ معلمتي: مَنْ أنا؟

فقالت: اعرِفي هُويَّتك تَعرِفي من أنت.

لقد أخذتني إلىٰ زاوية بعيدة عن الجسد وعن الرُّوح أيضًا، لكنها مهمة!

فبات السؤال:

ما هُويَّتي؟

توجَّهت بالسؤال إلىٰ صديقاتي لعلِّي أجد عندهنَّ ما يَشْفي غُلَّتي، فنظَّمْتُ هذه الحلقة النقاشية تحت عنوان:

ما هُويتي؟

(تستدير لأعضاء الحلقة):

إيمان: زميلاتي الحبيبات، أتوجَّه بالسؤال إليكم:

ما هويتنا؟

- تَستأذن ربا وتقول: الإجابة يسيرة يا إيمان، فأنت عربية!

إيمان: ما معنىٰ عربية؟!

ربا: تعني أنك تتحدثين العربية، وتسكنين شبه جزيرة العرب!

إيمان: نعم، نعم، أتحدَّث العربية، يا لها من لغة، أتدرين يا ربا كم تأخذني أشعارها، ويَخفُق قلبي لتعبيراتها!

تذوَّقي معي قول الشاعر:

وأشَدُّ ما لاقَيْتُ مِنْ ألَمِ الجَوَىٰ ★★ قُرْبُ الحَبِيبِ وما إليه وُصُولُ

كالعِيسِ في الْبَيْداءِ يَقْتُلُها الظَّمَا ★★ والماءُ فوق ظُهُورِها مَحْمُولُ

ربا: معنًىٰ جليلٌ حقًّا ومؤثِّر، أما أنا فيُعجبني قولُ أمير الشعراء في مدح الرسول ﷺ:

وُلِدَ الهُدىٰ فالكائِناتُ ضِياءُ ★★ وَفَمُ الزَّمانِ تَبَسُّمٌ وثَناءُ

نِعْمَ اليَتيمُ بَدَتْ مَخايِلُ فَضْلِهِ ★★ واليُتْمُ رِزْقٌ بَعضُهُ وَذَكاءُ

يا مَنْ لَهُ الأخْلاقُ ما تَهوىٰ العُلا ★★ مِنْها وما يَتَعَشَّقُ الكُبَراءُ

زانَتْكَ في الخُلُقِ العَظيمِ شَمائِلٌ ★★ يُغْرَىٰ بِهِنَّ ويُولَعُ الكُرَماءُ

أمَّا الجَمالُ فأنْتَ شَمْسُ سَمائِهِ ★★ وَمَلاحَةُ الصِّدِّيقِ مِنكَ أَياءُ

وَالحُسْنُ مِن كَرَمِ الوُجوهِ وخَيْرُهُ ★★ ما أُوتِيَ القُوَّادُ وَالزُّعَماءُ

تستأذِن ريان فيُؤذن لها:

أتدرين يا إيمان، لغتنا أعظم اللُّغات علىٰ وجه الأرض؛ فقد قال عنها الإمام ابن تيمية رحمه الله: إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظمِ شعائر الأُمَم، وبها

يتميَّزون، فاعلَموا -حفِظكم الله- أن اعتياد اللغة يُؤثِّر في العقل والخُلُق والدين تأثيرًا قويًّا بيِّنًا، ومعرفتها فرضٌ وواجبٌ؛ لأن فَهْمَ الكتاب والسُّنة فرضٌ، ولا يُفْهَم إلا بفَهْم اللغة العربية.

أميرة: هل تسمحون لي بمداخلة؟

إيمان: تفضَّلي يا أميرة.

أميرة: اللغة أيضًا قوة؛ قوة تَحمي كالسلاح، أَمَا سَمِعْتم قول مصطفىٰ صادق الرافعي رحمه الله: ما ذَلَّت لغةُ شعبٍ إلا ذَلَّ، ولا انْحَطَّتْ إلا كان أمره في ذَهابٍ وإدبارٍ، وأن هذه العربية بُنِيَتْ علىٰ أصلٍ يجعل شبابها خالدًا أبدَ الدهر، فلا تَهرَمُ ولا تموت، ليس هذا فحَسْب، بل شهِد لها غيرُ أهلها أيضًا، أما قرأتُم أقوالَ المستشرقين عنها؟

- يقول المستشرق مرجليوث الأستاذ بجامعة أُكسفورد: اللغة العربية لا تزال حيَّةً حياةً حقيقيةً، وهي واحدة من ثلاث لغات استولت علىٰ سكان المعمورة استيلاءً لم يَحصُل عليه غيرها.

- ويقول المستشرق جاك بيرك: اللغة العربية لغةٌ المستقبل، ولا شكَّ أنه يموت غيرُها، وتبقىٰ حيَّةً خالدة.

روان تستأذن فيُؤذَن لها:

أنا يُعجبني قول الخليفة عمر بن الخطاب: (تعلَّموا العربية؛ فإنها من دينكم، وتعلُّمُها يَزيد مِن المُروءة)، حقًّا فما رأيت بارًّا بهذه اللغة إلا فيه مِن المُروءة ما يَجعله مميَّزًا في خُلُقه عما سواه.

تعلِّق إيمان: فما بالكم بالله ﷻ الذي امتدَحها عندما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

جوزاء: العجيب يا صديقاتي أن الله تفضَّل علىٰ أهل العربية خاصةً بنعمة عظيمة، ربما لم يَلتفت إليها أحدٌ، سأسألكم سؤالًا: هل مِن السهل أن يتحدَّث أحدٌ بكلام الله؟

- بالطبع لا، ولا يكون أبدًا إلا بِمِنحةٍ إلهية، فمَنْ هذا المخلوق الذي يُمكن له أن يتحدَّث بكلام الخالق؟

فقد قال ابن عباس ﷺ: لولا أن الله يسَّر القرآن علىٰ لسان الآدميين، ما استطاع أحدٌ مِن الخلق أن يتكلَّم بكلام الله ﷻ وقد أقرَّ هذه الحقيقة قوله تعالىٰ:

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم: ٩٧].

إيمان: بارَك الله فيك يا جوزاء، ذكَّرتِني برائعة حافظ إبراهيم (اللغة العربية تتحدَّث عن نفسها)، أيوجد بينكم مَنْ يحفظُها؟

رؤىٰ: نعم يا إيمان، أنا أحفَظُها ومستعِدَّة لإلقائها عليكم الآن.

إيمان: تفضَّلي يا رؤىٰ.

هذه من أحبِّ القصائد إلىٰ نفسي، كلَّما قرأتُها، شعَرتُ بهيبة اللغة وكأنها أمٌّ تشكو أبناءها وتَنصَحُهم وتُحذرهم، فاستمعوا لقولها:

أنا البَحْرُ في أحْشائه الدُّرُّ كامِنٌ ★★ فهل ساءَلُوا الغوَّاصَ عن صَدَفاتي

أَيَهْجُرُني قومِي عفا الله عنهمُ ★★ إلىٰ لغةٍ لَمْ تتَّصِلْ برُواة؟

وسِعْتُ كتابَ اللهِ لَفظًا وغايةً ★★ وما ضِقْتُ عن آي به وعِظاتِ

فكيف أَضِيقُ اليومَ عن وَصْفِ آلةٍ ★★ وتَنْسِيقِ أسماءٍ لِمُخْتَرَعاتِ

فلا تَكِلُوني للزَّمانِ فإنَّني ★★ أخافُ عليكمْ أنْ تَحِينَ وَفاتي

إلىٰ مَعْشَرِ الكُتَّابِ والجَمْعُ حافِلٌ ★★ بَسَطْتُ رجائِي بَعْدَ بَسْطِ شكاتِي
فإمَّا حَياةٌ تَبْعَثُ الْمَيْتَ في البِلَىٰ ★★ وتُنْبِتُ في تلك الرُّمُوسِ رُفاتي
وإمَّا مَماتٌ لا قيامَةَ بَعْدَهُ ★★ مَماتٌ لَعَمْرِي لَمْ يُقَسْ بِمَماتِ

إيمان: بارَكَ الله فيك يا رؤىٰ، أحسنتِ الإلقاء والانتقاء أيضًا.

رؤىٰ: شكرًا إيمان، ولكني أرىٰ هُويَّة أخرىٰ توقَّد ذِهني لها الآن بسبب حديثكم، أنت يا إيمان مسلمة، هُويَّتُك الإسلام!

إيمان: وهل في ذلك شكٌّ؟ هل تقصدين أن هُويتي تكون: أنني عربية مسلمة؟

رؤىٰ: حقًّا، نحن عرب مسلمون، جدُّنا عمر؛ عمر الفاروق، رجل يَخافه الشيطان، فإن وجده في طريق ذهَب من طريقٍ آخَرَ.

تقف مريم دون استئذان رافعةً صوتها: أثْقَلْتُم علينا، أنا كويتيةٌ وكفىٰ.

ترد جوزاء: وأنا مصرية أيضًا وكفىٰ.

تضيف شام: أما أنا فمن سوريا؛ سوريا المقتولة من الوريد إلىٰ الوريد.

ترد رؤىٰ: لأجل سوريا وفلسطين وليبيا وبورما.

نحن مسلمون، فإن تألَّم مسلمٌ في قطب الأرض الشمالي، بكيتُ له ودعَمتُه، وإن كنتُ في قطبها الجنوبي، ألَم يقل رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفِهم، كَمَثَلِ الجَسَدِ الواحد، إذا اشتكىٰ منه عُضْوٌ تداعىٰ له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَر والحُمَّىٰ**».

ولا نستطيع أن نُنكر حبَّ الأوطان؛ فإنه يَسري في الدماء، ومثلُه حبُّ المسلمين مهما كان وطنُهم.

وتزيد جوزاء: صدقتِ يا رؤىٰ، والله إني أتألَّم لهم كأنهم إخواني، من أبي وأمي ويزيد، اللهم كُنْ للضُّعفاء في بقاع الأرض، (يعود الجميع لمقاعدهم).

أميرة: هل تسمحون لي بمداخلة؟

إيمان: تفضَّلي يا أميرة.

أميرة: ألا تذكرون خُطبة الوداع لرسول الله ﷺ التي قال فيها: «**أيها الناس، إن ربَّكم واحد، وإن أباكم واحدٌ، كُلُّكم لآدمَ، وآدمُ من تراب، أكرمُكُم عند الله أتقاكم، وليس لعربيٍّ علىٰ عَجَمِي فضْلٌ إلا بالتقوىٰ**».

مريم: أنا أحب التسامح، أنا عربية مسلمة كويتية، ولكني إنسانة، أَرِقُّ لهذا المخلوق الذي كرَّمه ربُّه، وجعله خليفةً في الأرض مهما كانت هُويَّته، وأَشعُر أن هذا من الدين، هل نسيتُم المرأة البغيَّ التي غفَر الله لها بسبب كلب؟

لقد تذكَّرتُ موقفًا من السيرة حول معنىٰ الإنسانية، موقف السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ التي أجارت زوجَها وهو ما زال كافرًا، فأجارَه رسول الله ولم يَخذُل ابنته، بل ردَّ عليه صحابة رسول الله أمواله كاملةً إكرامًا لرسول الله ﷺ، مع أنه كان كافرًا ولم يُسلِم بعْدُ!

ريماس: إذًا أفهَم من هذا الحوار المثمر النافع أنني إنسان، أنا إنسان أتحلَّىٰ بكل قيم الإنسانية كما علَّمها لنا مثال الإنسانية محمد ﷺ؛ مثل: (الصدق، والأمانة، والرحمة، والكرم، والتواضع، والتفاؤل...).

رؤىٰ: نعم يا ريماس، ولكن في حدود الولاء لهذا الدين المبارك، فلا أستحيي من تعاليمه بحجَّة أنني إنسان أُشارك كل إنسان في المبادئ والقيم الإنسانية.

إيمان: يا حبيبات، لا تَأْخُذْنَني في النقاش بعيدًا كما تَفْعَلْنَ مع أ. منىٰ، حديثي عن الهُويَّة فقط، وليس عن علاقتك بالآخرين، فمن المعروف أن ديننا نظَّم علاقتنا بكل شيء، حتىٰ الحيوان والجماد، ألا تَذْكُرْنَ المرأة التي دخلت النار بسبب قطة حبَسَتْها، لا هي أطعمَتْها، ولا هي تركتها تأكُل من خشاش الأرض.

وكذلك نظَّم علاقتنا بالجمادات عندما قال حبيب الله ﷺ عن جبل أحد: «**أُحُدٌ جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه**».

لكن لو لَخَّصْنا ما خرَجنا به من هذا النقاش، فستكون هُويتنا أنني عربية مسلمة، وهي هُويَّة تحت مظلَّة الإنسانية، فأنا إنسان، أنا إنسان أحمِل القيم الإنسانية بمفهوم الإسلام.

مقالٌ مُحبط!

ماتت القرش وربا القمل!

ماتت القروش وتضخّم القمل الذي يعيش حول زعانفها لينظفها لها من الجلد الميت أو الحشرات التي قد تنمو علىٰ جسدها!

فنجد القملة في عالمنا تطفو وتتقلد المقاليد، ومن ثمّ نرىٰ التخبط حليف كل فصيل بيننا، وفي كل دائرة اجتماعية صغيرة أو كبيرة نلمس فساد الذوق العام حتىٰ بين المتخصصين والذين يعدّهم الجيل أعلامًا له وقدوة..

فسد الذوق فنمت طحالبُ الأدب وخطفوا الأضواء من أهل الصنعة وازداد الذوق فسادًا وتدنيًا وملأوا قلوب أهل الصنعة إحباطًا..

فإن أردت الشهرة عليك أن تكون مبتذلًا مجردًا من الحياء، تقول أي كلام لا علاقة له بترقية النفس ودعم السليقة كما هو الهدف من الأدب! ودليل ذلك الأغاني القبيحة التي تصم آذان أولادنا صباح مساء، والمسلسلات التي أصبحت نسبة نجاحها تتناسب طرديا مع بذاءة الألفاظ، وانحدار

الدلالات وإلهاب الشهوات لدىٰ الشباب، لتخلق منه وحشًا مصابا بسعار الإشباع

لا هم له إلا شهوات جسده..

فسدت الواجهة الدينية فلا يسود ويُسمع له إلا من رفع لواء الطاعة في الحرام قبل الحلال وتعاضدوا علىٰ ليّ عنق الآيات والأحاديث لتخدم أهواءهم ثم تُفْتح لهم الأبواق كي يسبوا الصحابة ويشككوا في الثوابت، فيصمون الآذان عن الحق ويشككون الشباب في دينهم ثم يصرخ الأب والأم (ابني ملحد) في حين يظل الشاب المجتهد في الطلب تتكالب عليه نفسه والدنيا وتمزقه كل ممزق..

فسدت الأسرة فلا نجد أمّـًا شابة واعية تحسن إدارة وقتها، ونفسها وزوجها وأولادها، فنجد انتشار الطلاق بأعداد غير مسبوقة، ونرىٰ الفاسد بين إخوته هو المهاب اتقاء لشره والفاسد في المؤسسات هو الباقي لأن خيوط اللعبة بيده..

لا أرىٰ الصورة سوداء بل هذا واقعنا للأسف ومن يتجاهله فهو شريكٌ في انتشاره فنحن نحتاج للوعي كحاجتنا للماء والهواء خاصة وسط هذه الفتن التي تعصف بالأمة بكل

طوائفها، شيبًا وشبانًا، وكل إنسان في مكانه مسؤول..

كيف نعود قروشًا؟

يجب أن نخرج من غيبوبة تجاهل الواقع لنعلم كيف ندير حياتنا؟ وعلينا أن نعترف بأنه:

لم تعد هناك مدارس فعدمنا المعلمة الأم والمعلم الأب.

لم تعد هناك الأخت الكبرىٰ (الأم) بسبب تحديد النسل فالغالب مكتف باثنين أو ثلاثة لا فجوة عمرية بينهم حتىٰ يعظم دور الأخت الأم أو الأخ الأب .

وللأسف حتىٰ خطيب المسجد الأمين شبه مفقود أو مكبل لا يمكنه تحويل مساره الذي رُسِم له!

لا أجد منفذًا سوىٰ الوالدين والأعمام والعمات والأخوال والخالات (اللُحمة الأسرية والأرحام) إن تيسر ذلك، انشروا الوعي بين الجيل وأعيدوا للدين والفطرة مكانتهما .

لا تتعاجزوا ولا يهزمنكم الإعلام والمفسدون، كن أنت نبراس أهلك وهاديهم لا يضرك من خذلك فإن للصالحين

كرامة عند الله يحفظ نسلهم ويثبتهم برحمته وبرغم ضعف هذا الحديث: «**إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء**» إلا أننا نطمع في رحمة رب العالمين بهذه الأمة المكرمة والمنكوبة في آن .

لا تكن إمعة إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، بل كن مؤمنا قويًا له رؤيته لا تحركه أمواج الفساد بل يحركه يقين وفطرة سليمة، فالمؤمن القوي أحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، ولا تيأس رغم انتشار الطحالب فقد بشرك حبيب الله بقوله:

«**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**».

فلماذا لا تكون أنت من هذه الفئة الظاهرة القابضة علىٰ الحق ولو بين أولادك وحدهم!

فقد كان المسلمون في الأندلس يتعلمون الدين واللغة في السراديب المظلمة وما ركنوا..

فهل مازال لدينا همة؟

أو مازال لدينا أسرة تحتضن؟

ابدؤوا من بيوتكم، عائلاتكم، أفراد العمارة التي تسكنونها، وزعوا المهام، كل فرد يقدم ما يجيده، أكملوا بناء ما سقط من قيم، كن مدرسة في بيتك حتىٰ تعود المدرسة لما كانت عليه.

كن خطيبا في زوجك وأبنائك حتىٰ تعود لخطبة الجمعة مكانتها.

كن مؤدِبًا حتىٰ تُنقذ ذوق ابنك من الفساد فلا يستسيغ قرآنا بعد ذلك ولا أدبًا عِياذًا بالله.

كن عالمًا بسلامة بفطرتك علىٰ الأقل؛ لتنقذ هذا الجيل، وخير لك أن تعيش مثقلًا بتحقيق هدف ما من أن تعيش قملة! ولكن انتبه مع هذا كله اتخذ من منهج نبيك قدوة فلا يشغلَنّك التهذيب عن الحكمة والموعظة الحسنة ولا يحولَنك الحرص لجلادٍ فظٍ لا أبٍ حنون .

لو تدبرنا أهداف التعليم النظامي في المرحلة الابتدائية لوجدناها لا تتعدىٰ أن يخرج الطفل يجيد القراءة والكتابة باللغتين العربية والأجنبية وجدول الضرب، لا أكثر ولا أقل، فلماذا نخضع لهذا التعقيم المتعمد للعقل والذي تفرضه

مناهج الدراسة النظامية، يجب علىٰ الوالدين وضع منهج مختلف ينهيه الطفل عند تمام العاشرة أو بعدها بقليل مثل (حفظ قرآن وحديث وشعر وبعض الفقه الضروري في الطهارة والصلاة والأخلاق) مع ما تفرضه المدارس كما سبق، ووسائل التكنولوجيا يسرت هذا الأمر كثيرًا..

لا تجعل مفرمة الدروس الخصوصية تأخذ ابنك بين تروسها، فيكفيك طالب علم واحد يؤدب ابنك ومعلم واحد يرسخ لديه مبادئ الحساب والقراءة والكتابة باللغتين وكفىٰ، قطعا سيتفوق علىٰ أقرانه، أريد لك أن تتخيل أنه في الإعدادية وقد حفظ القرآن أو معظمه وصحيح الحديث وبعض الشعر..

ستجده يستصغر ما يُدّرس له في مدرسته وسيفوق أقرانه ثم يشبع نهمه بعد ذلك بالقراءة الحرة المنتقاة في الدين والتاريخ والأدب، مع الاستدامة علىٰ دراسته النظامية.

دع عنك من يشككون في أهمية الحفظ، فهل سمعت يومًا عن عالم لم يحفظ!؟ قطعًا لم يحدث، إنما التنفير من الحفظ ما هو إلا حلقة من حلقات التجهيل التي تحيط بنا، ألم يقل أجدادنا: (التعليم في الصغر كالنقش علىٰ الحجر).

اغتنم صفاء حافظة ولدك وهو صغير؛ وأدخل فيها ما استطعت من دين ولغة وتدريب علىٰ التأمل، سيدفع به ذلك للمروءة والتأني وحسن التدبير والقدرة علىٰ القياس فيما يعرض له من أمور الحياة ..

نعم ليس بالضرورة أن نكون كلنا علماء لكن بالضرورة أن يكون كلنا واعين!

وفي النهاية أنت من تحدد الخطط المناسبة لظروفك وإمكاناتك فكل إنسان يعلم من أين تشرق شمس بيته..

لكن لا تستسلم لفكي الرحىٰ..

اللهم هيء للأمة أمر رشد وردها إليك ردًا جميلًا.

فهرس الموضوعات

حبيب حياة ٧

حبًّا وكرامة ١٢

لولاه ما أيقنت أن الإسلام دين سماوي ١٧

الصبر وقود الإحسان ٢١

الأندلس ٢٦

أنا أخوك فلا تبتئس ٣٣

ومن يمحو من قلبك الأثر؟ ٣٩

٥- كسر القوارير ٤٤

سلسلة ملح الحياة ٥٥

١- صغيري الجميل ٥٥

سلسلة ملح الحياة ٥٩

٢- معجم صغيري ٥٩

سلسلة ملح الحياة ٦٦
٣ - صناعة خيال صغيري ٦٦
سلسلة ملح الحياة ٧٣
٤ - الله يسمعني، الله يراني ٧٣
سلسلة ملح الحياة ٧٩
٥- صناعة الذكرىٰ ٧٩
سلسلة ملح الحياة ٨٥
٦- (بين حاء وحاء تنمو العبقرية) ٨٥
سلسلة ملح الحياة ٩١
٧- بمن نحتمي؟ ٩١
سلسلة ملح الحياة ٩٧
٨- الحي والميت: (مشاري وعتيق) ٩٧
ملح الحياة ١٠٤

٩- ليس التأخير كالمنع ١٠٤
ملح الحياة ١٠٩
١٠- أيهم أنا؟ ١٠٩
ملح الحياة ١١٣
١١- بنت الحلال ١١٣
ملح الحياة ١١٨
١٢- لمن تنتظر زوجًا غير عادي ١١٨
ملح الحياة ١٢٤
١٣- هل افترشتم الورود ...؟ ١٢٤
حلقة نقاشية عنوانها: من أنـــا؟ مـــا هويتي؟ ١٢٩
مقالٌ مُحبط! ١٤٠